أعلام التربية في تاريخ الإسلام

٢

يوسف بن عبد البرّ القرطبي

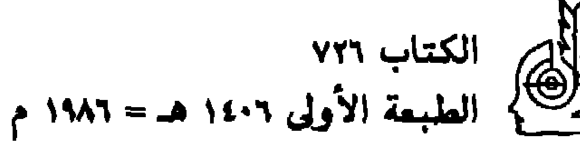
تأليف

عبد الرحمن النحلاوي

أستاذ التربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الفكر





الكتاب ٧٢٦

الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤

هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Tx FKR 411745 Sy

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد سيد المربين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، أرسله الله بالهدى ودين الحق ، هادياً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

وبعد فقد اشتدت حاجة الأمة الإسلامية ، والعربية إلى ما ينير لها سبل الحياة ، ويأخذ بأيديها إلى التربية السليمة ، في منعطفات هذا العالم المضطرب .

وهذه الحلقة الثانية من (سلسلة أعلام التربية في تاريخ الإسلام) وقد حاولنا في هذه السلسلة أن نجلي أهم الأفكار والآراء التربوية ، لعدد من أعلام الفكر الإسلامي ، الذين ساهموا في الكشف عن أسس وقواعد وآداب النظام التربوي الإسلامي الذي اختطّته العناية الإلهية . فاقتبسوا من مبادئ هذه التربية الربّانية وأساليبها ما يفوق كثيراً من مبادئ التربية المعاصرة في الشمول والمرونة

والتطبيق . ورسموا آداباً ونظماً تربوية جمعوا فيها من خبراتهم وخبرات سلفهم ، مسترشدين بنور الهداية الربانية ، ما لو اقتدينا به ، لنفضنا عنّا غبار التخلف . وأطلقوا من نظراتهم الناقدة ، ونصائحهم التربوية الغالية ، ما أوضح لنا كثيراً من وقائع التربية وأحوالها في عصرهم ، ومن الأدوية الناجعة لكثير من الانحرافات التربوية والسلوكية في كل زمان .

وطبيعة الإنسان وفطرته وجوهره ، أمور لا تتغير في حقيقتها ، ولكن قد يعتريها انحراف ، أو صدأ ، أو فتر ، فتأتي مثل هذه المحاولات التربوية الإنسانية ، التي توخينا الكشف عنها ، لتجلو الصدأ ، وتسدد الانحراف ، وتوضح المبادئ والأهداف .

وهذا عَلَم ثان من أعلام التربية في تاريخ الإسلام ، شغل حياته وكرسها لحفظ العلم ونشره وتصنيفه ، وتبيان حججه وبراهينه ، وآدابه ، وأساليبه ، وظنّيّه من يقينه ، إنه الإمام الحافظ الكبير : (يوسف بن عبد الله بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي) لؤلؤة الأندلس .

وقد ترك لنا كتباً قيّمة فيها كنوز من الآراء التربوية والفقهية ، والآثار والأحاديث النبوية ، الخاصة بتربية خير البريّة . من أشهرها كتاب (جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته وحمله) بين

فيه الكثير من مبادئ التربية الإسلاميـة ، وآداب التعلم وطلب العلم ، والتعليم ونشر العلم ، وأســـاليبهما . وعرض رأيـــه في أصـل العلم وحقيقته ، ومنابع المعرفة وصحتهـا ، ومراتب العلوم وقيمتهـا ، عرضـاً يستنبط منه الباحث المدقق نظرية متكاملة عن العلم والمعرفة . ويجد فيه المؤرخ المحقق وجهـة النظر الإسلاميـة ، مع مـايقـابلهـا من الآراء الفلسفية حول هذا الموضوع ، كما كانت معروفة في ذلك العصر .

ولئن وفقت إلى تقديم هذا كلـه ، في إطـار منـاسب ، وبـأسلوب إلى الأفهـام قريب ، فـذلـك فضـل من الله . واذا قصرت في شيء من ذلك ، فالله أسأل أن يسدد خطانا ويهدينـا سواء السبيل ، والحمـد لله رب العالمين .

الفصل الأول

ترجمة ابن عبد البر

هو الإمام شيخ الإسلام ، حافظ المغرب ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر بن عاصم النمريّ القرطبي .

(ولد في قرطبة سنة ٣٦٨ هـ[١] وتوفي سنة ٤٦٣ هـ[٢] ١٠٧٠ م . وليس لأهل المغرب أحفظ منه مع الثقة والدين ، والتبحر في الفقه والعربية والأخبار)[٣] ، (وفيها طَلَبَ الفقه وتفقّه ، ولزم أبا عمر أحمد بن عبد الملك الإشبيلي ، وكتب بين يديه ، ولزم أبا الوليد بن الفرضي وعنه أخذ كثيراً من علم الأدب والحديث)[٤]

(وكان حافظاً مكثراً ، عالماً بالقراءة ، وبالخلاف في الفقه

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ١١٢٨ ط دار إحياء التراث ـ بيروت .

(٢ـ٣) شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلي .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعلام .

وبعلوم الحديث والرجال)[1] ووصفه الحميدي بأنه « قديم السماع كثير الشيوخ . على أنه لم يخرج عن الأندلس . لكنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها ، ومن الغرباء القادمين إليها »[2] وقال عنه الذهبي « وساد أهل زمانه في الحفظ والإتقان . وانتهى إليه ، مع إمامته ، علوّ الإسناد[3] . سمع منه عالم عظيم ، فيهم من جلة أهل العلم المشاهير : أبو العباس الدلابي ، وأبو محمد بن حزم ، وأبو عبد الله الحميدي » .

وفي تذكرة الحفاظ : « أن ابن عبد البر ، فارق قرطبة ، وجال في غرب الأندلس مدة ، ثم تحول إلى شرق الأندلس ، وسكن دانية ، وبلنسية ، وشاطبة ، في أوقات مختلفة ، وتولى قضاء لشبونة وشنترين في أيام ملكها المظفر بن الأفطس »[4] وأنه : « كان الخطيب البغدادي حافظ المشرق وابن عبد البر حافظ المغرب »[5] فكان ابن عبد البر يوازي الخطيب البغدادي في الشهرة وحفظ الحديث .

(١و٢) الذهبي تذكرة الحفاظ (مرجع سابق) ١١٣٠

(٣) علوّ الإسناد هو أن يروي الراوي عمّن هو أكبر منه بكثير فيقل عدد الرواة بين المصنف وبين الرسول ﷺ ، مع مراعاة صحة السند وعدالة الرواة وعدم الانقطاع . وهذا مطلب عزيز . لذلك كثر طلاب الإمام يوسف بن عبد البر ومرتادوه ، وكان سنده مما يتنافس فيه .

(٤و٥) الذهبي : تذكرة الحفاظ ١١٣٠ وابن خلكان .

أما نسبه[1] فهو عربي أصيل من أحفاد الفاتحين ، ويرجع إلى (النَمِر بن قاسط) بفتح النون وكسر الميم ، فإذا نسب فتحت الميم (النَمَريّ) كما هو معروف في قواعد اللغة العربية ، وهي قبيلة كبيرة مشهورة ، منها صهيب بن سنان ، وجماعة من الصحابة .

وقد رثى نفسه بأبيات قال فيها :

تذكرت من يبكي عليّ مداوماً فلم ألف إلاّ العلم بالدين والخَبَرْ
علوم كتاب الله والسنن التي أتت عن رسول الله في صحّة الأثَرْ
وعلم الألى ، قَرناً فقَرناً ، وفهم ما له اختلفوا في العلم والرأي والنظر[2]

مؤلفاته وعلمه :

قال ابن خلكان : وقال أبو محمد بن حزم : « لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً فكيف أحسن منه ؟ »[3] وقال أيضاً :

---

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ١١٢٩ وابن خلكان .

(٢) راجع محمد بن محمد أحيد الماديك الموريتاني : مقدمة كتاب الكافي في فقه أهل المدينة . نشر مكتبة الرياض الحديثة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

(٣) المرجع السابق ، وقد لخص مقدمة المؤلف في رسالة (الإمام ابن عبد البر ورسالته في الأخلاق الإسلامية) ولخصنا عنها ٥ ـ ٧

يعني ابن خلكان : « وألف في الموطَأ كتباً مفيدة ، طارت في الآفاق ، منها كتاب (التَمهيد لما في الموطـأ من المعـاني والأسـانيـد) رتبـه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم ، وهو كتـاب لم يتقـدم أحـد إلى مثله ، وهو سبعون جزءاً »[1] قال فيه مؤلفه[2] لما فرغ منه :

سمير فـؤادي من ثـلاثين حجـة وصـاقـل ذهني والمفرج عن همّي

بسطتُ لهم فيـه كـلام نبيهم لما في معـانيـه من الفقـه والعلم

وفيـه من الآداب مـا يهتـدى بـه

إلى البر والتقـوى وينـأى عن الظلم[3]

وقال الذهبي :

ولـه كتـاب (الاستـذكار) ، وهـو اختصـار (التمهيـد) ، ولـه تواليف لامثيل لها في جمع معانيها منها (الكافي على مـذهب مـالـك) خمسة عشر مجلـداً ، ومنهـا كتـاب (الاستيعـاب في الصحـابـة) ليس لأحد مثله[4] .

هذا بعض ما قاله علماء التراجم والكتب والفهارس عن علم الإمام

(١-٢) المرجع السـابق ، وقـد لخص مقـدمـة المؤلف في رسـالـة (الإمـام ابن عبـد البر ورسالته في الأخلاق الإسلامية) ولخصنا عنها ٤ ـ ٥

(٣) د . محمد أحمد أحيد الماديك الموريتاني ـ مقدمة كتـاب الكافي في فقـه المـدينـة ، نشر مكتبة الرياض الحديثة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

(٤) الذهبي تذكرة الحفاظ (مرجع سابق) ١١٢٩/٤

يوسف بن عبد البر ، وربما ضاع كثير من كتبه ، لكن بقيت لنا بقية صالحة من كتبه المعروفة اليوم في عالم المخطوطات والمطبوعات . وأهم هذه الكتب[1] :

١ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب[2] ط. حيدر آباد بجزأين عام ١٣٣٦ هـ

٢ ـ الانتقاء في فضل الأئمة الفقهاء ، طبع في القاهرة ١٣٥٠ هـ

٣ ـ الزيادات التي تقع في الموطأ عن يحي بن يحي ، طبع في القاهرة ١٣٥٠ هـ

٤ ـ تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، طبع القاهرة ١٣٥٠ هـ

٥ ـ كتاب الدُّرر في اختصار المغازي والسير ، وهو مخطوط بالظاهرية

٦ ـ جامع بيان العلم وفضله ، ط. إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ١٣٩٨ هـ

٧ ـ الكافي في فقه أهل المدينة المالكي ، نشر مكتبة الرياض الحديثة ١٣٩٨ هـ

---

(١) د. محمد محمد أحيد ، ولد ماديك الموريتاني : مقدمة كتاب الكافي في فقه أهل المدينة المالكي (مرجع سابق) .

(٢) تاريخ التراث العربي : فؤاد سزكين ـ فهارس المجلد الأول ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

الفصل الثاني

آراء ابن عبد البر التربوية

ابن عبد البر محدث فقيه ، وأديب ظريف ، ومصنف ذو فكر منهجي . وقد صنف آراءه التربوية وجمعها في كتابه : (جامع بيان العلم وفضله) على طريقة المحدثين الفقهاء . فجاءت في طيات عناوين أبواب الكتاب وفصوله ، وبدت لنا من خلال تعليقاته واستنباطاته على الأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين ، في بعض الأحيان ، ومن خلال تلك الأحاديث والأقوال في أغلب الأحيان .

لذلك بسطنا كل مايؤيد استنباطنا التربوي ، من العناوين التي صنفها ، ثم من الآيات والأحاديث والآثار التي رواها ، ثم من أقواله وآرائه التي حققها ولخصها ، وعلق بها ، مؤيداً أو مخالفاً لما رواه من كلام من سبقه ، أو عاصره .

ولإلقاء الضوء على هذا كله ، ولإعداد ذهن القارئ لهذه الحلقة من سلسلتنا هذه . رأينا من المفيد ، بل من واجبنا في إعطاء الأمانة

العلمية حقها ، أن نذكر بين يدي هذه الحلقة ، مقدمة ابن عبد البر لكتابه الذي كان جل اعتمادنا عليه ، مقتصرين منها على أهم مايوضح لنا أسلوبه في الكتاب ، والأسباب التي دعته إلى تأليفه :

قال رحمه الله بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد ﷺ : « أما بعد ، فإنك سألتني عن معنى العلم وفضل طلبه ، وحمد السعي فيه ، والعناية به ، وعن تثبيت الحِجاج بالعلم ، وتبيين فساد القول في دين الله بغير فهم ، وتحريم الحُكْم بغير حجة ، وما الذي أجيز من الاحتجاج والجدل ، وما الذي كره منه ، وما يجوز من التقليد ، وما حرم منه . ورغبت أن أقدم لك ، قبل هذا ، من آداب التعلم ، وما يلزم العالم والمتعلم التخلق به ، والمواظبة عليه ، وكيف وَجهُ الطلب ، وما حمد ومدح فيه من الاجتهاد ، إلى سائر أنواع آداب التعلم والتعليم ، وفضل ذلك ، وتلخيصه باباً باباً ، مما روي عن سلف هذه الأمة ، رضي الله عنهم أجمعين ، لتتبع هديهم ، وتسلك سبيلهم ، وتعرف ما اعتمدو عليه من ذلك ، مجتمعين أو مختلفين في المعنى منه ... »(١)

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته وحمله ٣/١ ط. إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ثم نشرته دار الكتب العلمية ببيروت تصويراً .

وقد احتوت مقدمته هذه على إشارة إلى أهم عناصر عملية التربية والتعليم ، وهي العناصر البشرية وعبر عنها بـ (العالم والمتعلم) يقابلها في عرف التربية اليوم (المربي ، والتلميذ) والعناصر المعنوية المنهجيّة ، ويعبر عنها اليوم بـ (الأسلوب التربوي) وقد عبر عنه بقوله « وكيف وَجْه الطلب » وبين أن لهذا الأسلوب أنواعاً عبر عنها بقوله : « إلى سائر أنواع آداب التعلم والتعليم » أما أصول التربية ومبادئها فقد أشار إليها في أول مقدمته : « فإنك سألتني عن معنى العلم وفضل طلبه » فمعرفة معنى العلم ومقوماته ومراتبه ومصادره ، كل ذلك من الأصول التربوية . وفضل طلب العلم ووجوب التعلم من المبادئ التي قامت عليها التربية الإسلامية ، وهي كثيرة بدأت هذه الحلقة بها ، لما رأيت من اعتماد ابن عبد البر في كتابه كله على أول هذه المبادئ وراح يبسطه في تمام مقدمته . فبلغت هذه المبادئ أحد عشر مبدءاً ، منثورة في كل جوانب الكتاب وأبوابه ، فجمعتها وصنفتها وألفت بين معانيها وأدلتها ، وقارنت بينها وبين ما يقابلها في عصرنا .

ثم أتيت على الآداب والمظاهر التربوية والتعليمية ، وهي آداب سلوكية تنظيمية تتناول المعلم والمتعلم ، وتبين بعض علاقاتها كل منهما بالآخر ، وبالمجتمع أيضاً .

ثم أجملت أصول التربية ، كما أجملها ، فاقتصرت على أصول العلم

وتعريفه ، وتصنيف العلوم وبيان قيمتها ، وما دخل عليها من الخرافات والأباطيل .

كما اقتصرت على أهم مصادر المعرفة ، كالقرآن والسنة والإجماع والقياس ، والحواس والبداهة .

وختمت هذه الحلقة بتفصيل واضح لأساليب التعليم ونشر العلم ، عند ابن عبد البر بعد أن جمعتها من فصول وأبواب عدة ، وبيّنت ميزات كل أسلوب ، ومنشأه من كلام النبوة ، وآراء العلماء والتابعين في بعض هذه الأساليب كما نقلها ابن عبد البر ، ورأيه هو فيها .

وقد اجتهدت أن أقتصر من الأحاديث على ما صح من كلام رسول الله ﷺ . فإن كان فيه زيادة لم تصح أشرت إليها في الهامش ، أو أشرت إلى الجزء الذي صح من الحديث .

وما لم أجد له مرجعاً واشتدت الحاجة إليه ، نقلته على ذمة ابن عبد البر ، وأشرت في كل ذلك إلى الصفحات التي نقلت عنها ، وتركت لعالم الحديث أن يقرأ السند قراءة متبصر ويحكم عليه ، كما ورد في كتاب (جامع بيان العلم وفضله) ، فعلت ذلك خشية أن يمل القارئ في هذه السلسلة التي قصدت بها تقريب حقائقها إلى أذواق أهل هذا العصر من القراء والمفكرين والطلاب ، ولو أُثبتت فيها

الأسانيد وأسماء الرواة لصار حجم هـذه الحلقـة ضعف مـا هي عليـه ، ولانقطعت سلسلة تفكير القارئ وتعب في جمع الحقائق ومُتابعتها .

واعتمدت في تخريج بعض الأحاديث على ما أثبتته إدارة الطباعة المنيريـة في بعض الحواشي المطبوعـة مع كتـاب (جـامـع بيـان العلم) لثقتي بإدارة مـديرهـا الشيخ منير الـدمشقي ومن تبعـه وتعـاون معـه وأشرت إلى ذلك في مكانه .

وقـد حـاولت أن أعرّف القـارئ بـأهم مشـاهير علمـاء السلف من التـابعين وتـابعيهم ، ممن نقل ابن عبـدالبر آراءهم التربـويـة ، فـأثبتت ـ غـالبـاً ـ تلخيص ترجمتهم في هـامش الكتـاب ، كالـزهري ، وابن سيرين ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، وابن المبـارك ، وإبراهيم بن أدهم ، وغيرهم .

وقد جاء ذلك متأخراً على فترات متقطعة لئلا تزدحم الصفحات الأولى بالترجمـات ، فتقلل من لـذة التعرف على الآراء التربويـة وهي الهدف الأصلي من هذه الحلقات .

الفصل الثالث

مبادئ التربية عند الإمام ابن عبد البر

تمهيد :

يقصد بمبادئ التربية : قواعد وقوانين تربوية عامة ، واسعة التضمن أو الشمول ، يتفرع عنها تطبيقات وأساليب وآداب تربوية ، وقد تلزم عنها لزوماً . وقد وردت بعض هذه المبادئ على شكل نص شرعي ، كحديث : « كل مولود يولد على الفطرة » . وبعضها بل أكثرها مستنبط من الآيات والأحاديث وأقوال العلماء ، واستمرارهم على العمل به إلى يومنا هذا .

وقد صنفنا مبادئ التربية عند ابن عبد البر بحسب أهميتها كما يلي :

المبدأ الأول

مبدأ وجوب التعليم ، وتحريم كتمان العلم

تعاني جميع الدول في هذا العصر من نفقات التعليم ، ومن البحث عن جهاز تعليمي صالح من المربين والمعلمين والمدرسين وأساتذة الجامعات ، وتخصص لذلك قسماً كبيراً من ميزانيتها ، واهتمامها .

لكن الإسلام عالج هذه المشكلة[1] ، فجعل من كل عالم قادر على التعليم والتأليف حارساً أميناً على تحقيق رسالة التعليم ونشر العلم ، وجندياً مطيعاً في هذا المجال . وكان الإمام ابن عبد البر من أخلص الحراس والجنود ، بل في طليعة القواد الذين قادوا جيوش العلماء وحضوهم على أداء هذه الرسالة ، فكان من أهم دواعي تأليفه لكتابه العظيم في التربية والتعليم وهو (جامع بيان العلم وفضله) خوفه من الله ، إذا خالف هذا المبدأ الذي شرعه الله للأمة الإسلامية . إذ قال في مقدمته ، ملبياً طلب من دعاه إلى هذا التأليف « فأجبتك إلى ما رغبت ، وسارعت فيا طلبت ، رجاء عظيم الثواب ، وطمعاً في

---

(١) ذكرت معالجة الإسلام لهذه المشكلة في كتاب (التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة) ط. المكتب الإسلامي بيروت ٢٠٦

الزلفى يوم المآب ، ولما أخذه الله عز وجل على المسؤول العالم ، بما سئل عنه : من بيان ماطلب منه ، وترك الكتمان لما علمه . قال الله عز وجل : ﴿ وإِذْ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ لتُبَيِّنُنَّهُ لِلناسِ وَلاَ تكتُمونَهُ ﴾[1] وقال ﷺ : « من سئل علماً علمه ، فكتمه ، جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار »[2] ثم ساق للحديث روايات[3] وألفاظاً عديدة ، مصحوبة كلها بأسانيدها كاملة »[4] .

وقد أخذ بهذا المبدأ وعمل بمقتضاه جميع علماء الإسلام منذ عهد الصحابة إلى عصر التابعين ومن تبعهم إلى عصر المؤلف رحمه الله .

فمن الصحابة نذكر أبا هريرة رضي الله عنه ، إذ كان يقول : لولا آيتان في كتاب الله ماحدثتكم شيئاً . إن الله يقول : ﴿ إِنَّ الَّذينَ يَكْتُمونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ البَيِّناتِ وَالْهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّناهُ لِلنّاسِ في الْكِتابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاّعِنونَ ☆ إِلاّ الَّذينَ تابوا

(١) سورة ال عمران ١٨٧/٣

(٢ ـ ٣)جامع بيان العلم ٤/١ ـ ٥ ، والحديث صحيح . قال الحافظ عبد العظيم المنذري بعدما ذكر الحديث : رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي ورواه الحاكم بنحوه على شرط الشيخين ولم يخرجاه . الترغيب والترهيب للمنذري ٥٩/١ ط. عيسى الحلبي البابي .
قلت : ووافقه الشيخ ناصر الدين الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب) وصححه . انظر المرجع ٥٢/١ ط. المكتب الإسلامي في بيروت .

(٤) ابن عبد البر (جامع بيان العلم) مرجع سابق ٣/١ ـ ٤

وَأَصْلَحوا وَبَيَّنوا فَأُولَئِكَ أُتوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنا التَّوّابُ الرَّحِيمُ ﴾[1] ثم قال : إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مامن رجل حفظ علماً فسئل عنه فكتمه إلا جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار »[2] .

ومن التابعين العالم الشهير الحسن البصري الذي صبر على تعليم (الغثاء من الناس) ، عملاً بالعهد الذي أخذه الله على العلماء ألاّ يكتموا علمهم ، فقال : « اللهم إليك نشكو هذا الغثاء الذي كنا نحدث عنه . إن أجبناهم لم يفقهوا ، وإن سكتنا عنهم وكلناهم إلى عيّ شديد . والله لولا ما أخذ الله على العلماء في علمهم ، ما أنبأناهم بشيء أبداً »[3] .

ومما يوضح هذا المبدأ ويؤيده أن التعليم يبقى ثوابه مستمراً بعد وفاة المربي ، فكل عمل يعمله طالب علم ، بسبب تعليم أستاذه ، يكتب مثل ثوابه في صحيفة ذلك المربي ، سواء كان الطالب المتربي ابناً ، أو تلميذاً . وقد بسط الإمام (يوسف بن عبد البر) هذا المعنى في :

باب : قوله ﷺ : « ينقطع عمل المرء بعد موته إلا من ثلاث »

---

(١) سورة البقرة ١٥٩/٢ ـ ١٦٠

(٢ـ٣) جامع بيان العلم ٦/١ (مرجع سابق) .

ثم روى الحديث « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء : من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به بعده ، أو ولد صالح يدعو له »[1] وفي رواية عن أبي قتادة عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث تتبع المسلم بعد موته : صدقة أمضاها يجري له أجرها ، وولد صالح يدعو له ، وعلم أفشاه ، فعمل به من بعده »[2] .

كما بسطه (ابن عبد البر) رحمه الله في (باب قوله ﷺ : الدالّ على الخير كفاعله ») ، وتأويل ذلك أن التعليم دلالة على عمل الخير وهداية له فكل من دلّ بتعليمه على عمل خير ، فعمل به المستدل ، كتب للدالّ مثل أجر العامل المهتدي[3] .

وإيراد (ابن عبد البر) هذا الباب في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) قرينة قوية على صحة هذا التأويل الذي ذهبنا إليه ، ولا يمنع من أن يشمل الحديث العلماء ، وذوي الجاه من العوام الذين يدلون على عمل الخير ، ويقومون على الجمعيات الخيرية وبناء المساجد والمدارس ونحو ذلك مما لا يدخل في قصدنا التربوي التعليمي هنا دخولاً مباشراً ، وإن كان نص الحديث أقرب إلى الدلالة على فعل

(١) جامع بيان العلم (مرجع سابق) ١٥/١ والحديث من رواية أبي هريرة أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، ومسلم في صحيحه وأبو داود والنسائي والترمذي .

(٢) المرجع السابق ١٥/١ أي جامع بيان العلم .

(٣) المرجع السابق ١٦/١

الخير عمـومـاً دون تقييـد بطلب العلم ، ونص الحـديث : « عن أبي مسعود الأنصاري قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقـال : يـارسول الله احملني فإنه قد أبـدع بي . قـال : مـا أجـد مـا أحملكم عليـه . فـأت فـلانـاً ، فـأتـاه ، فحملـه . فـأتى رسـول الله ﷺ فـأخبره . فقـال رسول الله ﷺ : الدال على الخير له مثل أجر فاعله »[1] .

بعض آثـار هـذا المبـدأ التربـوي ومظـاهره في تـاريخنـا التربوي

كان من أهم آثار مبدأ وجوب التعلم وتحريم كتمان العلم أنْ تهافت العلمـاء يعرضون علمهم وانكبّوا على حلقـات العلم ، يعلمون النـاس في المسـاجـد والنـدوات العـامـة والخـاصـة وفي منـازلهم ... وكان بعضهم يتصدى للناس على المنابر فيقول : سلوني . نقل ابن عبد البر من ذلك عشرات الأخبار ، منهـا عن علي بن أبي طـالـب أنـه كان يقول : « ألا رجل يسأل فينتفع وينفع جلساءه »[2] ويقول أيضاً : « أيها النـاس : تعلموا العلم واعملوا به ، ومن أشكل عليه شيء من كتاب الله فليسـألني

---

(١) المرجع السابق ١٦/١ والحديث رواه مسلم وأبو داود والترمـذي . وقولـه « أبـدع بي » هو بضم الهمـزة وكسر الـدال يعني : كلّت ركابي وأعطبت وبقيتُ منقطعـاً لا مركوب لي .

(٢) جامع بيان العلم ١١٤/١

عنه »[1] وكانوا إذا شعروا بالارتيـاح طلبوا من النـاس أن يسـألوهم كما « أخبر نافع بن عمر الجمحيّ قـال سمعت ابن أبي مليكـة قـال : دخلنـا على ابن عباس فقـال : سلوني فـإني أصبحت طيبـة نفسي »[2] . وكان بعضهم يغري السائل بمزيـد من العلم بـأمور عجيبـة مشوّقـة ، كما روى ابن عبد البر بسنده : « عن ابن عباس أنه قـال : ألا تسـألني عن آيـة فيها مئة آية ؟ قال قلت ماهي ؟ قال : قوله عز وجل : ﴿ وَفَتَنَّـاكَ فُتـونـاً ﴾[3] قـال كل شيء أوتي من خير أو شر كان فتنـة وذكر مـوسى حين حملت به أمه وحين وضعته وحين التقطه آل فرعون ... حتى بلغ مـابلـغ »[4] ، وعن عمرو بن دينـار قـال : « قــال لي عروة : ائتـوني فتلقّوا مني ، وكان عروة يستـألف النـاس على حـديثـه »[5] ومنهم من يتحـدى النـاس ليسـألوه كما روى ابن عبـد البر « عن عكرمـة قـال : مالكَم لا تسألونـا ؟ أأفلستم ؟ »[6] ، و « عن سعيـد بن جبير قـال : أما أحد يسألني ؟ »[7] .

و « كان زائــدة يخرج إليهم ، فيقـول اكتبـوا اكتبـوا قبــل أن أنسى »[8] وروى ابن عبـد البر أن سفيـان الثوري كان يقول : « والله

(١و٢و٤) المرجع السابق ١١٥

(٣) سورة طه ٤٠/٢٠

(٥و٦و٧) المرجع السابق ١١٦

(٨) المرجع السابق ١١٧

لـو لم يـأتـوني لأتيتهم في بيـوتهم يعني أصحـاب الحـديث »[1] وأن « محمد بن يوسف الهروي قال سمعت الربيع بن سليمان يقول : قال لي الشافعي : ياربيع لو قدرت أن أطعمك العلم لأطعمتك إياه »[2] .

والأخبـار في ذلـك أكثر من أن تحصى ، كلهـا تصـور لنـا حرص علمائنا على تعليم الناس خوفاً من الله ورغبة في ثوابه .

المبدأ الثاني

طلب العلم فريضة

عبر علماء التربية الحديثة عن هذا المبدأ بـ (إلزامية التعليم) وقد جندت الدول الغربية الآلاف من الشرطة والمفتشين أول ما سنت هذا التشريع ، ولاحقت أرباب المعامل الذين يستخدمون الأطفال في سن التعليم ، وكذلـك أصحـاب المزارع . لكن صـدور هـذا المبـدأ التربوي الإسـلامي عن رسـول الله جعلـه مصحـوبـاً بـوازع ديني في المجتمـع الإسلامي فلا يحتـاج إلى رقيب من البشر ، ولا إلى جنـود أو مـوظفين يجبرون الناس على تطبيقه ، فصار جميع الآبـاء يـذهبون بـأولادهم إلى الكتّاب لتعلم القرآن والصلاة والعقيـدة . وقـد أفرد ابن عبـد البر لهـذا المبدأ باباً خاصاً عنوانه : (بـاب قولـه ﷺ « طلب العلم فريضـة على

(١و٢) المرجع السابق ١١٧

كل مسلم »[1]) ثم ذكر للحديث اثني عشر طريقاً (أي رواية) كلها عن أنس بن مالك ، مع زيادة تارة في أول الحديث « اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم ... »[2] وتارة في آخره « ... وطالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر »[3] .

ثم روى عن إسحاق بن راهويه كلاماً عن الحديث قال : « طلب العلم واجب ولم يصح فيه الخبر[4] ، إلا أن معناه أنه يلزمه طلب علم ما يحتاج إليه من وضوئه وصلاته وزكاته إن كان له مال وكذلك الحج وغيره »[5] .

---

(١) جامع بيان العلم (مرجع سابق) ٧/١ ، والحديث صحيح كما سترى في هذا التعليق .

(٢) هذه الزيادة لم تصح .

(٣) وردت هذه الزيادة في حديث عن أبي الدرداء أوله : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً ... » بلفظ « وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء » وهو بهذا اللفظ حسن الإسناد ، انظر صحيح الترغيب والترهيب ٣٣/١ (مرجع سابق) .

(٤) بل قد صح سنده باللفظ الذي أورده ابن عبد البر في عنوان الباب ، وأورده الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب) ٣٤ ، برقم ٧٠ وتكلم عليه في (ضعيف الترغيب والترهيب) برقم ٥٥ فصحح هذا اللفظ وضعف الزيادة التي في آخره وأورده كذلك في صحيح الجامع الصغير ٤١١/٤ ط. المكتب الإسلامي بيروت .

(٥) جامع بيان العلم ٩/١

ثم يبين ابن عبد البر رأيه مفصلاً في هذا المبدأ التربوي فقال معلقاً على كلام إسحاق[1] « قد أجمع العلماء على أن من العلم ماهو فرض متعين على كل امرئ في خاصته بنفسه . من ذلك مالا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه ، نحو الشهادة باللسان والإقرار بالقلب بأن الله وحده لا شريك له ، والشهادة بأن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائه حق ، وأن البعث بعد الموت للمجازاة بالأعمال ، والخلود في الآخرة لأهل السعادة بالإيمان والطاعة في الجنة ، ولأهل الشقاوة بالكفر والجحود في السعير حق . وأن القرآن كلام الله ، وما فيه حق من عند الله ، يجب الإيمان بجميعه ، واستعمال محكمه . وأن الصلوات الخمس فرض ، ويلزمه أن يعرف ماتجب فيه الزكاة ، ومتى تجب ، وفي كم تجب ؟ ويلزمه أن يعلم بأن الحج عليه فرض مرة واحدة في دهره ، إن استطاع إليه سبيلا ...

---

(١) هو الإمام الحافظ الكبير أبو يعقوب التيمي . نزيل نيسابور وعالمها ، يعرف بابن راهويه ولد سنة ١٦٦ هـ . قال الطوسيّ : ما أعلم أحداً كان أخشى لله من إسحاق وكان أعلم الناس ، وهو في رواية الحديث ثقة مأمون إمام ، روى عنه أبو داود الخفاف قوله : كأني انظر إلى مئة ألف حديث في كتبي وثلاثين ألفاً أسردها . قال وأملى علينا إسحاق من حفظه أحد عشر ألف حديث ، ثم قرأها علينا فما زاد حرفاً ولا نقص مات سنة ٢٣٨ هـ ، تذكرة الحفاظ للذهبي مجلد ٤٣٣/١ ط. دار إحياء التراث العربي بمصر .

إلى أشياء يلزمه معرفة جملها ، ولا يعذر بجهلها ، نحو تحريم الخمر والخنزير ، وتحريم الزنا والغصب والرشوة على الحكم ، والشهادة بالزور ، وأكل أموال الناس بالباطل ... وتحريم الظلم كله ، وتحريم نكاح الأمهات والأخوات ومن ذكر معهن ، وتحريم قتل النفس »[1] .

وهكذا سبق علماؤنا إلى تحقيق (إلزامية التعليم) على جميع المستويات والأجناس والأعمار ، فلم يخلُ مسلم ولا مسلمة من تعلم أهم مبادئ الإسلام وواجباته ومحرماته ، وأركانه ، وأركان الإيمان ، وبعض آيات القرآن ، ومعرفة أهم الحقوق والواجبات الاجتماعية الإسلامية ، وعمّ ذلك جميع أفراد الأمة الإسلامية حتى صار كل فرد على جانب من الثقافة الاجتماعية والدينية ، والمدنية ، يمحو به الأميّة ، ويعرف حقوقه وواجباته .

وقد كرّس معظم علماء الفقه والحديث أبواباً وبحوثاً من كتبهم ومؤلفاتهم لدعم هذا المبدأ وبيان أهميته عند الله ، ومكانته في الإسلام ، لما لمسوه من حضّ القرآن والسنة عليه ، وقيام أمر الدين والدنيا على تحقيقه ، وسنورد أهم ما أورده الإمام ابن عبد البر ، منذ نحو ألف سنة إلا خمسين عاماً ، حول هذا المبدأ التربوي الإسلامي العظيم .

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله (مرجع سابق) ١/١٠ ـ ١١

أ ـ فمن ذلـك مـا أورده تحت عنوان (تفريـع أبـواب فضـل العلم وأهله) انتقينا منه أهم مافيه مقتصرين ـ مـا أمكن ـ على الأحـاديث الثـابتـة عن رسول الله ﷺ فـأوّلهـا حـديث : « مـامن رجل يسلـك طريقاً يلتمس به علماً إلا سهّل الله له طريقـاً إلى الجنـة ومَن أبطـأ بـه عمله لم يسرع به نسبه »[1] .

وفيه ترغيب في طلب العلم ، وذلـك بـالوعـد بـدخول الجنـة ممـا يجعل طلب العلم مرتبطاً (بمبـدأ الإخلاص) ، وابتغـاء ثواب الله . كما أن فيـه إشـارة إلى أهميـة (العمـل بـالعلم) وهمـا من مبـادئ التربيـة الإسلامية كما سنرى .

أمـا حـديث : « مـا من قـوم يجتمعـون في بيت من بيـوت الله يتعلمـون القرآن ويتـدارسـونـه بينهم إلا حفّتهم المـلائكـة ، وغشيتهم الرحمة ، وتنزّلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده ... »[2] .

ففيه بيـان مكانـة طلاب العلم ومنزلتهم العظيمـة عنـد الله ، حتى

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (مرجع سابق) ١٣/١

(٢) المرجع السابق ١٣/١ ـ ١٤ وهذا الحديث جزء من حـديث طويل أولـه : « من نفّس عن مؤمن كربـة ... ومـا اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ... » رواه ابن ماجه بإسناد صحيح : (صحيح الترغيب والترهيب للألباني ٣١/١ ـ ٣٢) مرجع سابق .

سخر لهم الملائكة تحفّهم - أي تحيط بهم - وأنزل عليهم رحمته وسكينته ، وهذا ما يلاحظ من سيما الوقار والسكينة على المخلصين العاملين من العلماء .

كما أن فيه إشارة إلى (أسلوب التعليم الجماعي) وحض الرسول - ﷺ - على الاجتماع في طلب العلم ، وسنبينه مع (أساليب التربية عند ابن عبد البر) إن شاء الله .

ب - ومن مظاهر هذا المبدأ التربوي سموّ مكانة العلم في المجتمع الإسلامي ، يدل على ذلك ما أشاد به المربون من قديم الزمان من مكانة العلم وأهميته في موازين الرجال فقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فيما رواه عنه ابن عائشة من خطبة خطبها « واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون ، وقدر كل امرئ مايحسن فتكلموا في العلم تتبين أقداركم »[1] .

وعلق ابن عبد البر على كلمة علي هذه بقوله :

---

(١) جامع بيان العلم (مرجع سابق) ٩٩/١ وأبو عمر هو ابن عبد البر نفسه . وقد انتقل هذا المعنى إلى عصر النهضة الأوربية قال باكون : إن الإنسان يقدر بما يعرف . عاش باكون ١٥٦١ - ١٦٢٨ م واسمه (فرانسوا باكون) وهو انكليزي جمال الحاسب : دروس الفلسفة ط. دمشق ١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م نقلاً عن François Bacon Le Novnum Orgon. etc.

« ويقال : إن قول علي بن أبي طالب : (قيمة كل امرئ ما يحسن) لم يسبقه إليه أحد . وقالوا : ليس كلمة أحض على طلب العلم منها »[1] .

ثم قال « قال أبو عمر : قول علي رحمه الله : (قيمة كل امرئ ما يحسن) من الكلام العجيب الخطير . وقد طار الناس إليه كل مطير ، ونظمه جماعة من الشعراء إعجاباً وكلفاً بحسنه »[2] .

فمن ذلك ما يعزى إلى الخليل بن أحمد قوله :

لا يكون السريّ مثل الدنيّ ... لا ولا ذو الذكاء مثل الغبيّ
لا يكون الألدّ ذو المقول المر ... هف عند القياس مثل العيّ
قيمة المرء كل ما يحسن المر ... ء قضاء من الإمام عليّ[3]

وقال غيره :

يلوم على أن رحت للعلم طالباً ... أجمّع من عند الرواة فنونه
فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي ... فقيمة كل الناس ما يحسنونه[4]

وفي هذا كله حضّ على طلب العلم والاهتمام به . مما جعل أبناء الأمة يتسابقون في هذا المضمار ، حتى أصبحت حاملة مشعل الحضارة

(١و٢) المرجع السابق .

(٣و٤) المرجع السابق ١/١٠٠ والشطر الأول بتقدير حذف المفعول (يلومني على أن ..)

والعلم في العالم ، فقد كان من القيم الاجتماعية أن قيمة الإنسان فيما يتقن من علم ، لا فيما يجمع من مال .

جـ - بل إن قيمة العلم فاقت قيمة العبادة في التقرب إلى الله . وقد عقد ابن عبد البر باباً بهذا المعنى سماه :

(باب تفضيل العلم على العبادة)(١) أورد فيه أحاديث وأخبار من أهمها مارواه ابن عبد البر بسنده عن الزهري عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « خير دينكم أيسره ، وخير العبادة الفقه »(٢) . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي »(٣) . وعن عمر بن قيس الملائي قال : قال رسول الله ﷺ : « فضل العلم خير من فضل العبادة وملاك الدين الورع »(٤) .

هذه بعض الأحاديث من هذا الباب وهي صريحة في أن الإسلام

---

(١) المرجع السابق ٢١/١

(٢) المرجع السابق ٢١ ، ورواه البخاري في الأدب عن محجن بن الأدرع ، وكذلك الإمام أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير عنه ، وعن عمران بن حصين بلفظ « خير دينكم أيسره » صحيح الجامع ٣٣٠٤

(٣) جامع بيان العلم ٢١/١

(٤) المرجع السابق ٢٢/١ ورواه البزار بإسناد حسن ، والطبراني في الأوسط والحاكم (صحيح الترغيب) للألباني (مرجع سابق) .

يرفع من درجة العلم والتعلّم فيَجعله عند الله خيراً وأفضل من العبادة النافلة .

أما الأخبار عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم فكثيرة منها ما روي عن ابن عباس « نعمت العطية ونعمت الهديّة كلمة حكمة ، تسمعها فتنطوي عليها ، ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة »[1] . وعن قتادة قال : (باب من العلم يحفظه الرجل لصلاح نفسه وصلاح من بعده أفضل من عبادة حول)[2] ، وعن عبد الله بن الشخير قال : « حظ من علم أحب لي من حظ من عبادة »[3] ، وقال قتادة : قال ابن عباس : « تذاكرُ العلم بعض ليلة أحب إليّ من إحيائها »[4] . وعن أبي هريرة وأبي ذر قالا : « باب من العلم يتعلمه ويعمل به أحب إلينا من ألف ركعة تطوّع ، وباب من العلم يعلمه ، عمل به أو لم يعمل به أحب إلينا من مئة ركعة تطوّع ، وقالا : سمعنا رسول الله ﷺ يقول : إذا جاء الموت طالب العلم وهو على تلك الحال مات شهيداً »[5] ، وعن محمد بن يوسف سمعت الربيع

---

(١) جامع بيان العلم ٢٢/١ وقد أورده ابن عبد البر مرفوعاً إلا أن المنذري قال : ويشبه أن يكون موقوفاً .

(٢) جامع بيان العلم ٢٣/١

(٣و٤) المرجع السابق ٢٤/١

(٥) المرجع السابق ٢٥/١ وحديث أبي هريرة وأبي ذر ضعّفه الألباني إذ لم يورده في صحيح الترغيب .

بن سليمـان يقول : « سمعت الشـافعي يقول : لطلب العلم أفضـل من الصلاة النافلـة »[1] ، وعن سفيـان الثوري : « مـا من عمل أفضل من طلب العلم إذا صحت النيـة » ، وقـال : « لا أعلم من العبـادة شيئـاً أفضل من أن يعلم الناس العلم »[2]

المبدأ الثالث

العمل بالعلم

الخلاف حول هذا المبدأ قديم قدم العلم نفسه . فالفلاسفـة الأوائل كانوا يرون أن الوصول إلى الحقيقـة هو الهـدف من المعرفـة ، وأن مجرد الوصول إلى الحقيقـة كاف لتستقيم الأمور والأخلاق والمجتمعـات ، وعلى هذا الأساس سمي (الفيلسوف) بهذا الاسم ومعناه (محب الحقيقـة) . وعلى هـذا وضـع النظـام الفكري (لجمهوريـة أفـلاطـون) . لكن سقراط ، أقدم فيلسوف اشتهر في اليونـان ، لم يستطع بمجرد بحثـه عن الحقيقة ومحاولة إيصال تلامذتـه إليهـا بـأسلوبـه الحواري أن يصلح في الـواقـع مجتمعـه ، بـل على العكس ، تغلّب حكم[3] المجتمـع على آراء

(١و٢) المرجع السابق ٢٥/١

(٣) انظر كتاب (تمهيد في علم الاجتماع) د. عبد الكريم اليافي ٢٧ مطبعة جامعة دمشق ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م وتأمل كيف حكم بالموت على سقراط ، وهي حادثة مشهورة تجدها في معظم كتب تاريخ الفلسفة .

سقراط ، وحُكم عليه بالإعدام ، فتجرع السم وهو يحاور طلابه .

ومثله أفلاطون ، فإن آراءه في (الجمهورية) وتقسيمه الناس ، لو أريد تطبيقها عملياً في المجتمع ، لأخفقت إخفاقاً ذريعاً .

والسر في ذلك أن العلم وحده لا يربي الإرادة والعزم على العمل ، فلا بد معه من الإيمان وإثارة الوجدان وتربية العواطف الخيرة ، وهذا هو ما حققه مبدأ (العمل بالعلم) في التربية الإسلامية ، فقد بنى هذا المبدأ على تربية الخوف من عقوبة الله ، إذا لم يتمّ العَمل بالعلم ، والشعور بالخيبة بسبب هذا الموقف المتناقض بين العلم والعمل ، وهذا ما أوضحه ابن عبد البر بقوله : « قد ذم الله في كتابه قوماً ، كانوا يأمرون الناس بأعمال البر ولا يعملون بها ، ذماً وبخهم الله به توبيخاً يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال : ﴿ أَتَأْمُرونَ النّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلونَ الْكِتابَ أَفَلا تَعْقِلونَ ﴾[١] »[٢] .

وقد بني هذا المبدأ أيضاً على الشعور بالمسؤولية أمام الله ، والخوف من السؤال بين يدي الديّان يوم القيامة ؛ ولهذا المعنى عقد ابن عبد البر باباً خاصًّا عنوانه (باب : ماجاء في مساءلة الله عز

(١) سورة البقرة ٤٤/٢ .

(٢) جامع بيان العلم (مرجع سابق) ١٩٤/١

وجل العلماء يوم القيامة عما عملوا فيما علموا)[1] ذكر فيه الحديث الصحيح : « أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة ... ورجل تعلم العلم وعلّمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به ، فعرّفه نعمه ، فعرفها فقال فما عملت فيها ... »[2] إلى آخر الحديث ، وأورد من حديث عطاء بن عمر عن النبي ﷺ : « لاتزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس خصال : عن شبابه فيما أبلاه ؟ وعن عمره فيما أفناه ؟ وعن ماله : من أين اكتسبه وأين أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل فيه ؟ »[3] قال ابن عبد البر : ومن حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ مثله[4] .

الآثار العلمية والحضارية لهذا المبدأ : .

ترك هذا المبدأ التربوي آثاراً واضحة من الالتزام بالشريعة وبذل الجهد في ذلك . وقد نقل ابن عبد البر لنا أقوالاً للتابعين وآثاراً عن

---

(١) ابن عبد البر ـ جامع بيان العلم (مرجع سابق) ٢/٢

(٢) المرجع السابق ٢/٢ ـ ٣

(٣) المرجع السابق ٣/٢ وهذا اللفظ تفرد به ابن عبد البر .

(٤) يبدأ حديث ابن مسعود بلفظ « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة ... » رواه الترمذي . وقد حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (مرجع سابق) ١٤٨/٦ رقم ٧١٧٦ ، وأصح منه لفظ « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع ... » رواه الترمذي عن أبي برزة . المرجع السابق رقم ٧١٧٧ ، وقد رواه ابن عبد البر عن معاذ . في آخر ٣/٢ من جامع بيان العلم .

الصحابة تدل على تأثرهم بهذا المبدأ العظيم . منها قول أبي الدرداء : « إنما أخاف أن يقال لي يوم القيامة : أعلمت أو جهلت ؟ فأقول : علمت ، فلا تبقى آية من كتاب الله آمرة أو زاجرة إلا جاءتني تسأل فريضتها . فتسألني الآمرة : هل ائتمرت ؟ والزاجرة : هل ازدجرت ؟ فأعوذ بالله من علم لا ينفع ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يسمع »[١] . ومنها قول سفيان الثوري : « وددت أني قرأت القرآن ثم وقفت » وقوله : « وددت أني أفلت من هذا الأمر » ثم قال : « وما أدركت أحداً أرضاه إلا قال ذلك »[٢] .

وقد عقد ابن عبد البر لهذا المبدأ (باب جامع القول في العمل بالعلم)[٣] أورد فيه قول المأمون « نحن إلى أن نوعظ بالأعمال أحوج منا أن نوعظ بالأقوال »[٤] . وقول أنس بن مالك : « تعلموا ماشئتم أن تعلّموا فإن الله لا يأجركم على العلم حتى تعملوا به ، إن العلماء همتهم الوعاية وإن السفهاء همتهم الرواية »[٥] . وذلك بعد أن استفتحه بحديث نبوي عظيم يحض الأمة الإسلامية على العمل بمكارم

---

(١) ابن عبد البر (مرجع سابق) ٣/٢

(٢) المرجع السابق ٤/٢

(٣) جامع بيان العلم ٤/٢

(٤) المرجع السابق ٧/٢

(٥) المرجع السابق ٦/٢

الأخلاق وهو قوله ﷺ : « طوبى لمن تواضع في غير منقصة ، وذل نفسه في غير مسكنة ، وأنفق مالاً جمعه في غير معصية ، وخالط أهل الفقه والحكمة ، ورحم أهل الذل والمسكنة ... طوبى لمن عمل بعلمه ، وأمسك الفضل من قوله »[١] .

ثم روى عن علماء التابعين أقوالاً وحكماً مفيدة منها : « قال رجل لإبراهيم بن أدهم[٢] : قال الله عز وجل : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[٣] فما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ فقال إبراهيم : من أجل خمسة أشياء : عرفتم الله فلم تؤدوا حقه ، وقرأتم القرآن فلم تعملوا بما فيه ، وقلتم نحب الرسول وتركتم سنته ، وقلتم نلعن إبليس وأطعتموه ، والخامسة تركتم عيوبكم وأخذتم في عيوب الناس »[٤] .

---

(١) المرجع السابق ٤/٢ وقد رواه البخاري في تاريخه ، والبغوي ، والطبراني في معجمه الكبير ، والبيهقي في السنن ، (انظر التعليق على الصفحة المذكورة) .

(٢) (هو إبراهيم بن أدهم بن منصور العجلي ، أبو إسحاق البلخي الزاهد ، سكن الشام ، وهو ثقة في رواية الحديث ، مأمون ، وأحد الزهاد ، وكان من الخيار الأفاضل ، مات سنة ١٦٢ هـ في بلاد الروم ، وكان صابراً على الجهد والفقه والورع الدائم ، والسخاء الوافر ...) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ١٠٢/١ ط. في حيدر آباد ١٣٢٥ هـ .

(٣) سورة غافر ٦٠/٤٠

(٤) المرجع السابق ٥/٢

الدلالة التربوية لهذا المبدأ :

يدل كل ماتقدم على أنّ هذا المبدأ التربوي كان راسخاً في نفوس جمهور علماء الأمة الإسلامية وعامّتها وخلفائها وحكامها ، منذ عهد الرسول ﷺ إلى زمن الإمام يوسف بن عبد البر رحمه الله .

كما يدل على أن الهدف من العلم والمعرفة في التربية الإسلامية « ليس مجرد المعرفة العقلية الباردة التي تتعامل مع الأذهان وتحسب في رصيد الثقافة ! وإنما يبتغي الإسلام من وراء المعرفة الحركة التي تحوّلها إلى قوة واقعية ، لتحقيق مدلولها في عالم الواقع ، باستجابة ضمير الإنسان ، لتحقيق وجوده الإنساني ، كما يرسمه التصور الرباني الذي يرجع البشر إلى ربه ، وإلى منهجه الذي أراده الله له ، وإلى الحياة الكريمة الرفيعة التي تتفق مع الكرامة التي كتبها الله للإنسان ، والتي تحققت في فترة من فترات التاريخ ، على ضوء هذا التصور ، عندما استحال واقعاً في الأرض ، يتمثل في أمة تقود البشرية إلى الخير والصلاح والنماء ... »[1] .

وتحويل العلم إلى سلوك واقعي ـ وهو غاية هذا المبدأ التربوي الإسلامي ـ هو ماتسعى إليه التربية الحديثة اليوم . « فقد أصبحت

---

(١) خصائص التصور الإسلامي : سيد قطب ١٣ ط. دار الشروق .

الوظيفة الأساسية للتربية اليوم هي العمل على تعديل السلوك وفق مطالب نمو الدارسين وحاجات المجتمع ، عن طريق إعادة بناء خبرات الفرد وتعديلها وإثرائها ، وتحقيق نموه في الاتجاهات المناسبة »[1] .

وقد سبق هذا المبدأ التربوي (العمل بالعلم) إلى تحقيق هذه الوظيفة التربوية ، وقال به نبيّنا واهتدى بهديه علماؤنا لتحقيق مطالب النمو كما يراها الإسلام وفق حاجات المجتمع المسلم ، والفلسفة التربوية الإسلامية السليمة المنبثقة عن عقيدة التوحيد .

المبدأ الرابع

إخلاص النية في طلب العلم ووضوح الهدف

إخلاص النية عمل قلبي فكري يقابله في التربية الحديثة تحديد الهدف والعزم على العمل من أجل تحقيقه دون أي قصد آخر ، فالنية هي المقصد الذي يقصده المربي وطالب العلم من وراء عمله هذا .

والإسلام يربط الجزاء بالنية والمقصد ، ولا يكتفي بظاهر العمل ، لذلك جاءت جميع الأحاديث وآراء الصحابة والتابعين ، التي

---

(١) دكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان ـ المناهج المعاصرة ١٤ ط مكتبة الفلاح ـ الكويت .

ساقها ابن عبد البر في هذا المبدأ ، تحضّ على أن يكون الهدف من طلب العلم تحقيق مرضاة الله عز وجل ، واتقاء غضبه ، والعمل بما يرضي الله . وتحذر من أن يكون الهدف مجرد كسب دنيوي ، كمالٍ أو جاه أو منصب أو إرضاء الجماهير والعامة ، أو كسب ثقتهم ... أو نحو ذلك ، وهذا التحذير هو الذي عني به ابن عبد البر عندما خصص باباً لهذا المبدأ عنوانه :

(باب ذمّ الفاجر من العلماء ، وذمّ طلب العلم للمباهاة والدنيا)[1] وقد استفتح هذا الباب بحديث رواه بسنده « عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : لاتعلّموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا لتماروا به السفهاء ولا لتحتازوا به المجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار »[2] ثم علق على الحديث بقوله : « وهذا الوعيد لمن لم يرد بعلمه

---

(١) جامع بيان العلم ١٨٦/١

(٢) جامع بيان العلم ١٨٧/١ والحديث صحيح رواه ابن ماجه ، وابن حبان والحاكم عن جابر ، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير ١٦٣/٦ برقم ٧٢٤٨ وقد أوردهُ بفتح التاء ، وأصله (تتَعلموا) حذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، وبلفظ « أو تماروا به السفهاء » ، « ولا لتجترئوا به المجالس » والمعنى واحد أو متقارب . ففي القاموس (الجرأة : كالجرعة والثُبة ... والمجترئ الأسد) قلت : ومنه يفهم أن (اجتراء المجالس) التوثب إليها أو التربع فيها كما يفعل الأسد . وكذا (احتيازها) بمعنى الحوزة عليها وجعلها في حوزة العالم فكل هذه المقاصد مذمومة .

شيئاً من الخير ، والله يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء » .

فتبين من هـذا التعليـق أن من أهـداف طلب العلم عنـد ابن البر إرادة الخير بهذا العلم ، ثم أورد بعد سرد عـدد من أقوال العلمـاء ، أورد حـديثـاً آخر في هـذا المعنى : عن أبي هريرة قـال : قـال رسول الله ﷺ : « من تعلم علماً مما يُبتغى بـه وجـه الله ، لا يتعلّمـه إلاّ ليصيب به عَرَضاً من الدنيا ، لم يجد عَرف الجنة يوم القيامة . يعني ريحها »[1] .

وأورد ابن عبد البر آراء تربوية لمن سبقه من العلمـاء والصحـابـة والتابعين في هذا المعنى نورد هنا أهمها ؛ لنستنبـط بعـد ذلـك الـدلالـة والأهمية التربوية لهذا المبدأ .

من ذلك قول الصحـابي الجليل (أبي ذرّ رضي الله عنـه) لجماعـة من أهل العراق سألوه أن يحدثهم فقـال : « تعلمُنّ أن هـذه الأحـاديث التي يُبتغى بها وجه الله ، لا يتعلمها أحد يريد بها عَرَض الدنيا ، فيجد عَرف الجنة أبداً »[2] .

---

(1) جـامع بيـان العلم ١٩٠/١ . والحـديث صحيـح رواه أحمـد ، وأبـو داود ، وابن مـاجـه ، والحـاكم ، عن أبي هريرة ، وصححـه الشيـخ نـاصر الـدين الألبـاني في صحيح الجامع الصغير ٢٧٢/٥ ، بلفظ (عوضاً من الدنيا) ، وبدون لفظ (يعني ريحها) وهذه الجملة الأخيرة مدرجة من بعض الرواة لبيان المعنى .

(2) جامع بيان العلم ١٨٧/١

ومنه قول سفيان[1] الثوري : « إنما يطلب الحديث ليُتّقى به الله عز وجلّ ، فذلك فضله على غيره من العلوم »[2] . وقول حماد بن سلمة : « من طلب الحديث لغير الله مكر به »[3] .

ومنه قول إبراهيم التيمي : « من طلب العلم لله عز وجل آتاه الله منه ما يكفيه »[4] ، وإخلاص النية أول خطوة يخطوها طالب العلم لأن تحديد الهدف وتوطيد العزم على تحقيقه هي الخطوة الأولى لأي عمل هام ، والتعلم من أهم الأعمال ، لذلك قال ابن المبارك[5] : « أول

---

(١) هو سيد الحفاظ أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق حدث عن أبيه وزبيد بن الحارث وحبيب بن أبي ثابت وطبقتهم وعنه ابن المبارك ويحيى القطان . وهو أمير المؤمنين في الحديث كتب عن ألف ومئة شيخ . قال القطان : ما رأيت أحفظ منه . وكان جريئاً في نصح الخلفاء ، مناقبه في مجلّد لابن الجوزي يبلغ حديثه ثلاثين ألفاً . ولد سنة ٩٧ هـ وكان أبوه من علماء الكوفة مات في البصرة في الاختفاء من المهدي شعبان ١٦١ هـ وكان قوالاً بالحق شديد الإنكار تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٠٣/١ ـ ٢٠٦ مرجع سابق .

(٢و٣و٤)جامع بيان العلم ١٩١/١

(٥) هو شيخ الإسلام فخر المجاهدين قدوة الزاهدين عبد الله أبو عبد الرحمن الحنظلي ـ ولاءً ـ التركيّ الأب ، الخوارزميّ الأم ولد سنة ثماني عشرة ومئة وأفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً . حدّث عنه خلق لا يحصون منهم : عبد الرحمن بن مهديّ ويحيى بن معين . وأحمد بن حنبل ، وكان نسيج وحده ثقة متثبّتاً وكانت كتبه نحواً من عشرين ألف حديث توفي ١٨١ هـ تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٧٤/١ مرجع سابق .

العلم النية »[1] .

والتربية الحديثة تقيم العملية التربوية على أساس تحديد الأهداف وتعتبر « أن تحديد أهداف التربية هو الخطوة الأساسية الأولى في بناء المنهج المدرسي وتنفيذه وتقويمه »[2] وسبب ذلك : « أن وضوح الغاية شرط أساسي لبلوغها ، وهو في الوقت ذاته يعين على حشد الجهود وتوجيهها لبلوغ الغاية المقصودة »[3] كما « تساعد الأهداف على تنسيق الجهود »[4] و « تساعد على اختيار المحتوى والطريقة والوسيلة »[5] في كل تعلم وفي كل عمل تربوي ، وكذلك « تساعد الأهداف على تقويم المنهج ، بل العملية التربوية بأسرها »[6] ، أي تحديد قيمتها بمقدار تحقيقها للأهداف .

لذلك كله رأينا أن علماءنا لم يكتفوا بإيضاح الهدف والغاية والقصد من التعلم فقط ، بل حذروا من المقاصد الجانبية التي يخشى أن تشكك طالب العلم في غايته الأساسية ، أو تصرفه عنها . كجمع المال ، وصدارة المجالس ، والرغبة في الرياسة ... وحصروا غاية التعلّم في أمور أساسية أهمها :

أ - إرادة الخير للنفس وللناس وهذا ماعبر عنه ابن عبد البر

---

(١) جامع بيان العلم ١١٨/١ (مرجع سابق) .

(٢و٣و٤و٥و٦) د. الدمرداش - المناهج المعاصرة ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ (مرجع سابق) .

عندما شرح الحديث « لا تعلّموا العلم لتباهوا به العلماء .... إلخ » فقال : « وهذا الوعيد لمن لم يرد بعلمه شيئاً من الخير » ، وهذا الكلام يفهم منه أن من أراد بعلمه شيئاً من الخير قبل منه ، وبهذا تعتبر إرادة الخير هدفاً من الأهداف التي تنطوي عليها نية طالب العلم .

ب ـ أن يتعلم من أجل العمل بالعلم ، لا من أجل نشره فقط ، وفي هذا قال أبو قلابة : « إذا أحدث الله لك علماً ، فأحدِثْ له عبادة ولا يكن جل همك أن تحدّث به »[1] ويُقرّر عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل أنّ عدم إخلاص النية في الفقه من أجل العمل به سبب من أسباب الفتن ، كما روى يوسف بن عبد البر بسنده « عن عبد الله بن مسعود قال : كيف أنتم إذا لبستم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم الكبير وتتخذ سنّة مبتدعة ، فإذا غير منها شيء قيل غُيّرت السنة ؟ قيل متى ذاك ياأبا عبد الرحمن ؟ قال : إذا كثر قراؤكم وقل فقهاؤكم ، وكثر أمراؤكم وقل أمناؤكم . والتُمِسَت الدنيا بعمل الآخرة . وتُفُقِه لغير العمل »[2] .

جـ ـ أن يتعلم العلم ليتقي به الله عز وجل ، كما رأينا في قول سفيان الثوري : « إنما يطلب الحديث ليُتّقَى به الله عز وجل »[3] أي

(١و٢) جامع بيان العلم ١٨٨/١ (مرجع سابق) وقد أورد المنذري هذا الأثر في الترغيب والترهيب بلفظ « وتفقه لغير الدين » وحسّنه الألباني .

(٣) المرجع السابق ١٩١/١

ليجعل وقاية بين العالم وبين غضب الله . فإذا عرف الحرام فحرّمه وعرف الحلال فأحلّه ، فقد اتقى غضب الله وعذابه ومقته بالعلم ، وهذا الاتقاء غاية من غايات العمل بالعلم ، فالمسلم يعمل بعلمه اتقاءً لله

د ـ ابتغاء مرضاة الله ، وهذا الهدف واضح في نص الحديث السابق عن أبي هريرة : « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله ... »[1] إلخ ... وكل مانقل ابن عبد البر ـ ونقلنا عنه بعضه ـ ينصب بالدرجة الأولى على هذا الهدف ، كقول أبي ذرّ حيث وصف الأحاديث بـ « التي يبتغى بها وجه الله »[2] . وقول حماد : « من طلب الحديث لغير الله مكر به »[3] وقول إبراهيم التيمي وقد سبق .

وإنما يتحقق ابتغاء مرضاة الله بإخلاص العبودية لله والخضوع لأوامره وشريعته .

---

(١) المرجع السابق ١٩٠/١ وقد سبق تخريجه

(٢) المرجع السابق ١٨٧/١

(٣) المرجع السابق ١٩١

المبدأ الخامس

التعليم مجّاناً

تنص دساتير معظم الدول اليوم على أن التعليم الابتدائي إلزامي ومجّاني .

وهذا يلزم الحكومات المتتالية في كل دولة بتهيئة كل وسائل التعليم من معلمين أكفاء ومديرين وكتب وأبنية مدرسية ووسائل تعليمية ونحو ذلك . وهذا يكلف الحكومة ميزانية ضخمة ومبالغ باهظة .

وقد حضّ الإسلام على التعليم مجاناً ، وكان هذا الحض نتيجة عفوية للمبدأ السابق (الإخلاص) ولما ورد فيه من النهي عن جعل القصد من التعليم مجرد جمع المال ، أو كسب الرزق ، أو الجاه . .

لذلك لم يخصص ابن عبد البر باباً خاصاً لهذا المبدأ ، بل ساقه في معرض الكلام عن المبدأ السابق ، فروى « عن أبي العالية قال : مكتوب عندهم في الكتاب الأول : ابنَ آدم عَلّم مجاناً كما عُلّمت مجاناً ، قال أبو عمر (يعني ابن عبد البر) معناه عندهم : كما لم تغرَّم ثمناً ، فلا تأخذ ثمناً . والمجّان عندهم الذي لا يأخذ ثمناً »[1] .

ثم أيّد هذا المبدأ بحديث أبي هريرة الذي أوردتُه في المبدأ

---

(١) جامع بيان العلم ١٨٩/١

السابق : « من تعلّم علماً مما يبتغي به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة »[1] ويؤخذ منه هنا تحريم تعلم العلوم الربّانية ، كالحديث والتفسير والفقه والتوحيد ، لمجرّد كسب الدنيا لا لقصد آخر .

أما العلوم الأخرى ، كبعض الحرف والصناعات ، فلا يشملها هذا التحريم . ويورد ابن عبد البر حديثاً آخر في التعليم مجاناً : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « علماء هذه الأمة رجلان : فرجل أعطاه الله علماً ، فبذله للناس ، ولم يأخذ عليه صُفراً[2] ولم يشترِ به ثمناً ، أولئك يصلّي عليهم طير السماء ، وحيتان البحر ، ودوابُّ الأرض ، والكرام الكاتبون ، ورجل آتاه الله علماً ، فضرب به عن عباده وأخذ به صفراً ، واشترى به ثمناً ، فذلك يأتي يوم القيامة ملجماً بلجام من نار »[3] .

---

(١) المرجع السابق ١/١٩٠

(٢) (الصُفر بالضم من النحاس ، وصانعه الصَفّار ، والذهب) القاموس المحيط . قلت : وهو هنا كناية عن المال قليلة أو كثيره ، لأن بعض النقود كان يصك من النحاس كالفلوس وبعضها من الذهب كالدنانير .

(٣) جامع بيان العلم ١/٣٨ ، وهذا الحديث أورده المنذري في الترغيب والترهيب وقال : (رواه الطبراني في الأوسط ، وفي إسناده عبد الله بن خداش ، وثقه ابن حبان وحده) . قلت : وضعّفه الشيخ ناصر الألباني في (تخريج أحاديث الترغيب والترهيب) ، وأكثر معانيه صحيحة تشهد لها أحاديث سبق ذكرها ، لكنه بهذا اللفظ لم يصح عن رسول الله ، والله أعلم ، ولفظ المنذري (ولم يأخذ عليه طمعاً ...) (فبخل به) عوضاً عن (فضربه) .

وخلاصة هذا المبدأ أن الإسلام يحرّم منع العلم عن الناس إذا لم يدفعوا له ثمناً ، فهو يُحرّم اتخاذ العلم سلعة تباع وتشترى بالمال ويعاقب الله من يتخذه كذلك .

وبهذا سارت التربية الإسلامية شوطاً بعيداً في تحقيق مجانية التعليم ، وكانت هذه الخطوة في أول الأمر شعبية ، لامركزية ، إذ كان العلماء يجودون بالعلم ، ويقيمون حلقات التعليم من غير أجر ، ثم جاد الخلفاء عليهم بالعطايا تقديراً لجهودهم ، فكان بعضهم يقبلها ليستعين بها على مشاريعه العلمية ، وينفق أكثرها على طلابه ، ثم نظّم الأمر تنظيماً شعبياً آخر ، فكان الأغنياء يوصون بأموالهم أو يتبرعون بعقاراتهم لتكون وقفاً ينفق ريعها على طلاب العلم[١] .

وبقيت المجانية هي المبدأ السائد بالنسبة لطلاب العلم ، فلم نسمع أن طالباً منهم دفع درهماً لعالم ، مقابل أن يعلّمه شيئاً من العلوم الشرعية ، لأن العلم والتعليم كان في نظرهم أسمى من ذلك وأجلّ ، وبهذا ساد الرخاء العلمي وانتشر العلم كما سنرى في المبدأ التالي .

---

(١) سنبسط هذا في حلقة قادمة من هذه السلسلة ـ إن شاء الله .

المبدأ السادس

وجوب نشر العلم وتبليغه

هذا المبدأ التربوي الإسلامي يحقق مطلباً حضارياً جديداً ، غير ما حققته المبادئ السابقة . فبعد أن حاولت التربية الإسلامية محو الأمية ، حين أوجبت التعلّم والتعليم ، وتزويد كل فرد مسلم بمقدار من المعرفة والتربية الاجتماعية ، ليعرف مكانته في هذا الكون ، وريادته للبشر يخلّصهم من الظلم والظلام . حرص رسول هذه الأمة الإسلامية ومربيّها الأول ، على جعل كل فرد من أفرادها نبراساً ينشر العلم ويضيء لأبناء أمته بالمعرفة الصحيحة ، سبل حياتها الاجتماعية ، المنظمة وفقاً لشريعة الله ، ويبلّغ هذا النور الإلهي لمن يستطيع تبليغه من الأمم الأخرى .

ولهذا أطلق رسول الله ﷺ نداءه الشامل : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج »[1] ودعاءه لكل من ينشر العلم : « نضّر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »[2] ،

(١) جامع بيان العلم ١٧٦/٢ . وتتمة الحديث : « ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » رواه البخاري وأحمد والترمذي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص . انظر صحيح الجامع الصغير للألباني برقم ٢٨٣٤ ، ٩/٣

(٢) جامع بيان العلم ٣٩/١ . وقد رواه الترمذي والضياء المقدسي عن زيد بن ثابت . وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني . صحيح الجامع الصغير ٢٩/٦ برقم ٦٦٣٩

وفسر هذا النداء والدعاء تفسيراً تربوياً فقال ﷺ : « تسمعون ويُسمع منكم ، ويُسمَع ممن يَسمع منكم »[1] . وقد أوضح ابن عبد البر هذا المعنى التربوي فقال : « وفي هذا الحديث أيضاً دليل على تبليغ العلم ونشره » .

وكأني برسول الله ﷺ ، وقد كشفت عنه الحجب فأدرك المئات بل الآلاف من رواة سنته ، يُقبلون على أصحابه ليسمعوا حديثه ، ولينقلوه ، ويبلغوه مَن بَعدهم ، ويسمعه من بَعدهم لِيبلغوا من بَعدَهم دواليكَ .. حتى يُقيِّض الله لهذه السنة من يجمعها ويدونها ، ويحميها من التحريف أو الزيادة ، ويضبطها ويشرحها للناس لكي يعملوا بها ؛ وقد قيض الله البخاري ومسلماً وأصحاب السنن والمسانيد والمعاجم وغيرهم ..

ونشرُ العلم مقصد قائم بذاته لا يستلزم أن يكون الناشر فقيهاً ، بل حسْبُه أن يفهم على قدر طاقته ، ولكن عليه أن يبلِّغ من استطاع تبليغه « فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » . والتفقه فرع للحفظ والنقل لذلك حرص الرسول ﷺ

---

(١) جامع بيان العلم ٤٣/١ ورواه أحمد وأبو داود والحاكم عن ابن عباس . وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير ٤١/٣ رقم ٢٩٤٤) .
وقد أطلق الرسول ﷺ نداءه ودعوته للتبليغ في حجة الوداع وكانت أكبر اجتماع في عصره فقال : « ليبلغ الشاهد الغائب » .

على التأكيد على هذا المبـدأ التربوي العظيم ، لأن نشر العلم وتبليغـه ، مقدم على فهمه والتفقه فيه ، وهو شرط له فلا يتمّ الفقه إلا به .

وهـذا المبـدأ متمم لمبـدأ وجوب التعليم ، إلا أن الوجوب في ذلـك المبدأ قاصر على من سئل ، فـإذا سئل ولم يعلّم غيره ، ألجمـه الله بلجـام من نار يوم القيامة .

أما هـذا المبـدأ فهو مبـدأ حضـاري شـامل للـدولـة ، والعلمـاء ، والأغنياء ، والأمراء ، والخلفاء ، وهو يوجب على كل قـادر أن يعمل من جانبه ، في حدود اختصاصه ، على ازدهار العلم ونشره .

وعلى هذا المبدأ قامت المدارس ، كما سنرى في حلقـة قـادمـة ، إن شاء الله .

ومن أجل هذا المبدأ وغيره بنى علمـاء الحـديث علمهم في مصطلح الحديث ومناهجه ، وبينوا لنا أساليب نشر العلم ، وسأذكر بعضهـا في بحث قادم .

وقد عقد ابن عبد البر لهذا المبدأ (باب دعـاء الرسول ﷺ لمستمع العلم وحافظه ومبلّغـه) نقلت منـه الحـديثين السـابقين ، وتعليق ابن عبد البر عليهما .

وقد أفاد ابن عبد البر معنَى هَذا المبدأ في تعليقه على حـديث أبي هريرة : « إن النـاس يقـولـون : أكثر أبـو هريرة ، ولـولا آيتـان من

كتاب الله ما حدثت حديثاً . ثم تلا : ﴿ إنَّ الّـذينَ يَكتمونَ مـا أنزلَ اللهُ مِنَ الكِتابِ ... ﴾[1] و ﴿ إنَّ الّذينَ يكتُمونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ البَيِّناتِ والْهُـدَى ... ﴾[2] وأن إخـواننـا المهـاجرين كان يشغلهم الصفـق بـالأسواق وإخواننـا الأنصـار كان يشغلهم العمل في أموالهم . وأن أبـا هريرة كان يلـزم رسـول الله ﷺ ليشبـع بطنـه ويحضر ما لايحضرون »[3] . قال أبو عمر : « في هذا الحديث من الفقه معـان ، منهـا أن الحـديث عن رسول الله ﷺ حكمـه : حكم كتـاب الله ، ومنها : إظهار العلم ونشره وتعليمه »[4] .

وعقد ابن عبد البر أيضاً باباً صريحاً خاصاً بهذا المبدأ التربوي وهو (**باب جامع لنشر العلم**)[5] بناه على أحاديث نبوية صريحة في الحض على نشر العلم كقوله ﷺ : « لأنْ يَهديَ اللهُ على يديك رجلاً واحـداً خير لك مما طلعت عليـه الشمس »[6] وقولـه : « مثل الـذي يتعلم العلم

---

(١) سورة البقرة ١٧٤/٢

(٢) سورة البقرة ١٥٩/٢

(٣ ـ ٤) جـامـع بيـان العلم ٩٦/١ (مرجـع سـابـق) وأبـو عمر يعني نفسـه (يـوسف بن عبد البر) وكلامه هذا تعليق على كلام أبي هريرة الذي سبقه ، وسبق مع تمـام الآية في المبدأ الأول .

(٥) جامع بيان العلم ١٢٢/١

(٦) ورواه الطبراني في معجمـه الكبير ، وهنـا رواه ابن عبـد البر نقلاً عن سهـل بن سعد ، كلاهما عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ .

ولا يحدث به ، كمثل الذي يكنز الكنز ولا ينفق منه »[1] .

أثر هذا المبدأ في تاريخنا التربوي :

من الصعب أن يحيط الباحث في هذا الكتيّب بالجهود الجبارة الواسعة لمئات العلماء وآلاف الرواة من التابعين وتابعيهم لنشر العلوم الإسلامية وتداول أحاديث الرسول ﷺ بين الأجيال وتبليغها من جيل إلى جيل .

ولكن بحسبه أن يقتصر على ما ورد من ذلك عند ابن عبد البر ، مادامت هذه الحلقة مقتصرة على هذا المربي العالم الجليل ؛ وأن يشير إلى ما ورد ، أو سيَرد من هذه الآثار في هذه الحلقة من سلسلة أعلام التربية في تاريخ الإسلام ، فمن ذلك :

أ ـ اهتمام الصحابة بنشر حديث الرسول ﷺ وحفظه وسماعه وتبليغه[2] ، وأبو هريرة أكبر مثل على ذلك يدلّ عليه كلامه كما

---

(1) جامع بيان العلم ١٢٢/١ ، ورواه الطبراني في الأوسط ، وأحمد والدارمي وأبو نعيم في الحلية ... كلهم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، انظر صحيح الجامع الصغير ١٩٧/٥ رقم الحديث ٥٧١١

(2) وذلك كقول علي رضي الله عنه : « لم يؤخذ على الجاهل عهد بطلب العلم ، حتى أخذ على العلماء عهد ببذل العلم للجهال لأن العلم كان قبل الجهل به » وفي هذا حجة ودليل على أن مبدأ نشر العلم وتبليغه أهم من مبدأ وجوب التعلّم ، جامع بيان العلم ١٢٣/١ وقد سقطت (لم) والمعنى لايتم إلا بها .

أوردتُه في الفقرة الآنفة من هذا البحث ، وإكثاره من حفظ حديث الرسول ﷺ وروايته ونشره ، بعد أن قضى طفولته وشبابه ملازماً له .

ب ـ اهتمام العلماء بوضع علم قائم بذاته لبيان المنهج العلمي لنقل العلوم وحفظها وتبليغها وتداولها بين الأجيال ، سالمة من التحريف ، محفوفةً بالأمانة العلمية والدقة وصحة الرواية ، وقد نقلت عن ابن عبد البر نموذجاً لهذا الاهتمام في آخر هذه الحلقة ، عندما عرضت الأساليب التربوية عنده ، هذا وأرجو أن أعرض للقارئ نماذج أخرى في الحلقات القادمة إن شاء الله ، عند علماء أجلاّء من أعلام التربية في تاريخنا .

جـ ـ لم يكتف العلماء بوضع الأسس والأساليب المنهجية لنشر العلم ، بل أوضحوا لنا آداب العالم والمتعلم في نشر العلم وتبليغه ، وتلقّيه ، وسأعرض قريباً أهم هذه الآداب عند ابن عبد البر أيضاً في الفصل التالي .

د ـ أورد ابن عبد البر صورة عن اهتمام بعض التابعين والأئمة الأربعة المجتهدين والخلفاء الأمويين ، بهذا المبدأ التربوي النبوي ؛ فروى عن مالك قوله : « اتقوا الله وانشروا هذا العلم »[1] ، وعن

---

(١) جامع بيان العلم ١٢٣/١ مرجع سابق .

عبد الملك بن مروان وهو يخطب يوم الفطر : « إن العلم يقبض قبضاً سريعاً . فمن كان عنده علم فلينشره ، غير خاف عنه ولا غال فيه »[1] ، وعن سليم بن عامر : « كان أبو أمَامة يحدّثنا فيكثر ، ثم يقول عقلتم ؟ فنقول : نعم فيقول : « بلغوا عنا فقد بلغناكم » يرى أن حقاً عليه أن يحدّث بكل ما سمع »[2] ، وعن جعفر بن برقان قال : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز : « أما بعد : فمُرْ أهل الفقه والعلم ، مَن عندَك ، فلينشروا ما علّمهم الله في مجالسهم ومساجدهم . والسلام »[3] ، وذكر ابن بكير عن اللّيث عن ابن شهاب[4] قال :

(١و٢) جامع البيان العلم ١٢٣/١ مرجع سابق .

(٣) المرجع السابق ١٢٤/١

(٤) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب . القرشيّ الزهري المدني الإمام . ولد سنة خمسين ، وحدث عن ابن عمر ، وسهل بن سعد ، وأنس بن مالك ومحمود بن الربيع ... وطبقتهم من صغار الصحابة وكبار التابعين . وحدث عنه الأوزاعي والليث والإمام مالك وأمم سواهم ... بلغ حديثه ألفين ومئتين ، وكان يكتب كل ما سمع عندما كان يطلب العلم . وما رؤي في زمانه أجمع للعلم والحديث منه ، ولا أحفظ منه قال عن نفسه : « ما استودعت قلبي علماً فنسيته » ، وكان زاهداً بالدنيا ، وكان يؤدب ولد هشام بن عبد الملك . وكان يحفظ من الوهلة الأولى . حفظ القرآن في ثمانين ليلة . وكان متقناً لما يحفظ . لم يؤلف ولم يترك كتاباً في الحديث . وروي عنه قوله : « من سره أن يحفظ الحديث فليأكل الزبيب » وقوله : « ما عُبد اللهُ بشيء أفضل من العلم » توفي في رمضان سنة أربع وعشرين ومئة للهجرة اهـ . باختصار عن الذهبي ـ تذكرة الحفاظ ١٠٨/١ ـ ١١١

« ماصبر أحد على العلم صبري ولا نشره أحد نشري »[1] .

المبدأ السابع

مبدأ الأمانة العلمية وتحرّي الصحة والدقة في نقل المعرفة

تمهيد :

يمثل هذا المبدأ قمة من قمم الحضارة العلمية الإسلامية ، وميزة امتازت بها هذه الحضارة ، على سائر الحضارات التي عاصرتها وسبقتها وتلتها .

فقد كانت المعارف الطبية والفلكية في تلك الحضارات مشوبة بتعليلات وأفكار سحرية خرافية ، وكانت المعارف الدّينيّة الغيبيّة ممزوجة بكثير مما اختلط بالدين من أوهام الوثنية ، وكانت الأخلاق والتشريعات الدينيّة محرّفة وفق أهواء كبار رجال الدين ، ومصالح بعض الساسة والملوك ، بل إن معظم رجال الدين كانوا ﴿ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَليلاً ﴾[2] .

---

(١) ورَوى عنه قوله هذا : الذهبي في تذكرة الحفاظ ١٠٩/١ (مرجع سابق) ، وقد أورده ابن عبد البر في جامع بيان العلم .

(٢) سورة البقرة ١٧٤/٢

فلما جاء الإسلام كان النداء الذي أعلنه لمحو الأمية وتعليم النـاس ونشر العلم ، مصحوباً بالتحذير من أي كذب أو تحريف أو تبـديل في نقـل الأخبـار والأحـاديث ومصـادر التشريـع ومنـابـع العلم ، كما في حديث الرسول ﷺ : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، **ومن كـذب عليّ متعمـداً فليتبـوأ مقعـده من النـار** »[(١)] وهذا الحديث النبوي ، وهو الأصل الذي بني عليه هـذا المبـدأ التربوي العلمي الحضاري ، كان المنطلق الذي انطلق منه علماء هـذه الأمـة في مسيرتهم العلميـة الحضـاريـة ، وفي تـدوين التشريـع الإسـلامي ، وعلومـه ، وتراث هـذه الأمـة ، حتى التراث الشعري واللغـوي والأدبي كانوا يخضعونـه ، عمومـاً ، لبعض قواعـد المحـدّثين عنـد روايتـه ونقلـه وتدوينه .

وقد أورد ابن عبد البر في معنى هذا الحديث أحـاديث أخرى عن رسول الله ﷺ كقولـه : « إيـاكم وكثرة الحـديث ، ومن قـال عني فلا يقـولنّ إلا حقـاً »[(٢)] ، وبيّن رأيـه في الإكثـار من الحـديث بقـولـه :

---

(١) رواه البخـاري وأحمـد والترمـذي عن عبـد الله بن عمرو بن العـاص . (صحيـح الجامع الصغير ، مرجع سـابق ٩/٣ رقم الحـديث ٢٨٣٤) وأورده ابن عبـد البر في جامع بيان العلم ١٧٦/٢ بدون قوله : « ... ومن كذب علي متعمـداً ... » وسبق تخريجه في أول مبدأ (وجوب نشر العلم وتبليغه) .

(٢) ولفظه في مسند أحمد وعند الحاكم في المستدرك : « إيـاكم وكثرة الحـديث عنّي ، =

« قال أبو عمر : الذي عليه جماعة فقهاء المسلمين وعلمائهم ذم الإكثار دون تفقه ولا تدبر ، والمكثر لا يأمن مواقعة الكذب على رسول الله ﷺ ، لروايته عمن يؤمن وعمن لا يؤمَن »[1] ، وقوله : « أما طلب الحديث على ما يطلبه كثير من أهل عصرنا اليوم دون تفقّه فيه ولا تدبّر لمعانيه ، فمكروه عند جماعة أهل العلم »[2] .

وهكذا يلاحظ القارئ ، أن هذا المبدأ التربوي جاء ضابطاً لمعظم المبادئ التي سبق بحثها ، إذ لما كان قد أمر الرسول ﷺ بالزامية التعلّم ، ووجوب التعليم ، ونشر العلم ، فقد خشي على الشريعة الإسلامية من التحريف والتغيير ، كما حدث للشرائع السابقة ، لذلك ضمن ﷺ ، هذا المبدأ ضوابط لصحة المعرفة ، وصدق النقل ، ودقة التصحيح ، والتقيد ، ما أمكن ، باللفظ المنقول ، وفهمه والتفقه فيه ، ونحو ذلك من معاني هذا المبدأ التي استنبطها علماء السلف ، ونقل بعضها ابنُ عبد البر ، ولما كانت تمثّل رأيه ، رتبتُها ترتيباً

= فمن قال عليّ فليقل حقاً ، أو صدقاً ، ومن تقول عليّ ما لم أقل ، فليتبوأ مقعده من النار » كذا أورده وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير مرجع سابق ٢/٣٨٦ رقم الحديث ٢٦٨١ ، ورواه الدارمي وابن ماجه ، وكلهم رووه عن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ .

(١) جامع بيان العلم ٢/١٢٤ ، وقد أورده بسنده كعادته .

(٢) جامع بيان العلم ٢/١٢٧

جديداً يسهّل فهمها على القارئ الكريم وعرضتها على النحو التالي ؛ بعد أن جمعتها من مواضع عدة من كتابه ونسقت بينها وصنّفتها بما يناسب طبيعة البحث .

بعض مظاهر هذا المبدأ التربوي وآثاره المنهجية

يبدو لمن تتبع آراء ابن عبد البر ، وما أورده من أحاديث وآراء وأقوال عن الدقة والأمانة في نقل العلم ، أن لهذا المبدأ مظاهر ونتائج علمية ومنهجية وتربوية ، لم تمارس الأمم الأخرى مثلها . أهمها :

أ ـ التربية على الصدق في نقل العلم والتحذير من الكذب : وقد تركت الأحاديث النبوية في هذا المعنى أثرها الواضح في التابعين ومن بعدهم من العلماء وخصص ابن عبد البر لهذا باباً عنوانه : (باب آفة العلم وغائلته وإضاعته)[1] نقل فيه أقوالاً لبعض كبار التابعين وتابعيهم ، استفتحها بقول **الزهري** : « إن للعلم غوائل .. ومن غوائله الكذب فيه وهو شر غوائله »[2] ، وقال خالد بن يزيد بن عبد الله بن المختار : « أنكر الحديث الكذب فيه وآفته النسيان ... »[3] ، وقال النسّابة البكري لرؤبة بن العجاج :

(١) جامع بيان العلم ١٠٧/١

(٢) المرجع السابق ١٠٧/١ ـ ١٠٨

(٣) المرجع السابق ١٠٨/١

« ياروؤبة إن العلم آفة وهجنة ونكراً ، فآفته نسيانه ، وهجنته أن تضعه عند غير أهله ، ونكره الكذب فيه »[1] .

وقد رأى القارئ في مطلع هذا المبدأ قول ابن عبد البر في الحذر من إكثار الحديث ، وأنّ « المكثر لا يأمن من مواقعة الكذب على رسول الله ﷺ لروايته عمن يُؤَمن وعمن لا يُؤمَن » ، فبلغ به التأثر بهذا المبدأ ، وبالعلماء الذين نقل عنهم ، وهم جماعة فقهاء المسلمين وعلماؤهم ، كما وصفهم ، بلغوا حداً فضّلوا معه الإقلال من التحديث وعدم النقل عن كل من يروي ، خشية عدم الفقه وخشية الوقوع في الخطأ أو الكذب على رسول الله ﷺ فالصحة والدقة والفهم عندهم أمور مقدمة على الرواية والإكثار منها .. ولذلك كان تاريخنا الفكري والتربوي والعلمي أصح تواريخ الأمم قاطبة .

ب ـ كذلك ربّى هذا المبدأ علماء السلف على الورع وتحرّي الدقة في نقل كلام الرسول ﷺ ، كما قاله ، ما أمكن ذلك ، فمن خاف ألاّ يصيب لفظ الرسول ﷺ ، قال بعد الفراغ من الحديث : « اللهم إن لم يكن هذا فشكله » ، كما روى ابن عبد البر عن ربيعة بن زيد « أن أبا الدرداء كان إذا حدث عن رسول الله ﷺ ثم فرغ منه قال :

---

(١) المرجع السابق ١٠٩/١

اللهم إن لم يكن هذا فشكله »[1] .

وعن محمد بن سيرين[2] قال : « كان أنس بن مالك إذا حدث عن رسول الله ﷺ حديثاً ففرغ منه قال : أو كما قال رسول الله ﷺ »[3] . واستمر علماء الحديث على هذا إلى يومنا ...

وكان بعضهم يرتعد خوفاً من أن يحرّف كلام الرسول ﷺ أو ينسى بعض ألفاظه ، كما روى ابن عبد البر : « عن عبد الله بن عمر أنه حدث يوماً ، بحديث ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ ، ثم أرعد وأرعدت ثيابه ، وقال : أو نحو هذا أو شبه هذا »[4] .

جـ ـ تربية الرواة والعلماء على إصلاح اللحن وضبط ألفاظ الحديث بالشكل : كان من أهم نتائج هذا المبدأ تحرّي الدقة في كتابة

(١و٣و٤) جامع بيان العلم ٧٨/١ ـ ٧٩

(٢) هو أبو بكر مولى أنس بن مالك ، وأصل والده (سيرين) من جرجرايا ، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان . سمع أبا هريرة وعمران بن حصين وابن عباس وابن عمر وطائفة . وكان فقيهاً إماماً غزير العلم ، ثقة ثبتاً علاّمة في التعبير (أي تفسير الأحلام) ، رأساً في الورع . وأمه صفية مولاة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه . قال مورق العجلي : « مارأيت أحداً أفقه في ورعه ولا أورع في فقهه من ابن سيرين » ، وقال أبو عوانة : « رأيت ابن سيرين ، فما رآه أحد إلا ذكر الله » . وكان مع ذلك صاحب ضحك ومزاح توفي سنة عشر ومئة . الذهبي ـ تذكرة الحفاظ ٧٧/١ ـ ٧٨

الحـديث النبوي وقراءتـه بـدون لحن أو خطـأ إملائي أو نحـوي ، وفي إصلاح اللحن إن وجـد بسبب خطـأ بعض الرواة ، فربما كان بعضهم على غير علم ، أو خبرة ، أو درايـة بـاللغـة العربيـة فيروي المرفـوع منصوباً أو نحو ذلك ... وقد خصص ابن عبد البر رحمه الله لهـذا بحثـاً عنوانـه : (بـاب الأمر بإصلاح اللحن والخطـأ في الحـديث ، وتتبع ألفاظه ومعانيه)[١] نقل فيه عن الأوزاعي[٢] قوله : « أعربوا الحديث فإن القوم كانوا عرباً »[٣] أي حرّكوا أواخر كلماتـه بحسب موقعهـا من الإعراب .

ولم يكتف بهذا بل نقل عن أربعة من كبار العلماء[٤] سألهم جـابر

(١-٣) جامع بيان العلم ٧٨/١

(٢) الأوزاعي هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الدمشقي الحـافـظ ولـد سنـة ثمـان وثمانين في بعلبك ، حدث عنه كبـار العلمـاء في عصره كابن المبـارك والوليـد بن مسلم ويحيى القطـان وأبي عـاصم ، وكان إذا أخـذ في ذكر المعـاد يقول القـائل : « أترى في المجلس قلب لم يبـك ؟ » وكان أهـل زمـانـه يقـولـون : « الأوزاعي اليوم عالم الأمة . ولما قدم أبو العباس السّفّاح الشام سألـه : « مـا تقول في دمـاء بني أمية » فقال له : « دماؤهم عليـك حرام » واستـدل بحـديث رسول الله ﷺ « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ... الحديث » وكان أهل الشام ثم أهل الأندلس على مذهب الأوزاعي مـدة من الـدهر وكان المنصور يعظمـه ويصغي إليه ويجلّه مات في سنة ١٥٧ هـ . الذهبي - تذكرة الحفاظ ١٧٨ - ١٨٣

(٤) وهم القـاسم بن محمـد ، وأبـو جعفر محمـد بن علي ، وعطـاء بن ربـاح ، وعـامر الشعبي .

« عن الرجل يحدّث بالحديث فيلحن . أأحدث به كما سمعت أم أعربه ؟ قالوا : لا بل أعربه »[1] فدلّ على وجوب إصلاح اللحن في الحديث . كما ذكر في عنوان الباب .

كذلك إذا كان الخطأ ناجماً عن النقط ـ وكانوا يعبرون عنه بالإعجام ـ يجب إصلاحه ، كما روى ابن عبد البر عن محمد بن المثنى قال : « سألت أبا الوليد عن الرجل يصيب (أي يجد) في كتابة الحروف : المعجم غير معجم أو يجد الحرف تغير بعجمة ، نحو التاء ثاء ، والباء ياء ، وعنده في ذلك التصحيف والناس يقولون الصواب ؟ قال : يرجع إلى قول الناس فإن الأصل الصحّة »[2] فهذا الخطأ في إهمال نقط بعض الحروف ، (أو تغيير النقطتين بثلاث نقط فتصبح (التاء ثاء) وتصبح (الباء الموحدة التحتية) ، أي ذات النقطة الواحدة من تحت تصبح (ياء مثناة تحتية) أي ذات نقطتين من تحت الحرف ، هذا كله يغير معنى الحديث ، لذلك أمر أبو الوليد بالرجوع إلى الصواب ، وتصحيح الخطأ .

وقد كان لهذا الاهتمام بالشكل والنقط والضبط في الكتابة ، أثره الواضح في إتقان كتابة اللغة العربية ، وشكلها ونقطها ، والتفنن في

---

(١) جامع بيان العلم ٧٨/١
(٢) جامع بيان العلم ٧٨/١

الخط العربي حتى صارت لـه فنون وأنواع ، كالكوفي المضلع ، والكوفي المـدوّر ، والمشجّر ، والثلث ، والرقعي ، والفـارسي ، و .... ووصـل إلينـا القرآن مشكولاً منقوطـاً على أوضح وأدق صورة ووصل كـذلـك الحـديث مضبـوطـاً ومشكـولاً في بعض الكتب كصحيـح البخـاري ، وصحيح مسلم ، وألّفت كتب في بيـان المشتبـه من أسماء الرجـال ، أي اللذين تتشابه كتابـة أسمائهم ، أو تلتبس على القـارئ بسبب تقـاربهـا بالنقط والإعجام ... كما سنرى عند الإمام الـذهبي في حلقـة مقبلـة إن شاء الله ...

وهكـذا كان لمبـدأ الأمـانـة العلميـة أثره الـواضـح في إثراء الخـط العربي ، ووصول التراث واضحاً سالماً من التحريـف .

د ـ ذكر الأسلوب التربوي أو المنهجي الـذي نقلت بـه المعرفـة أو العلم : بلغ من حرص علمائنا الأوائل على الدقة والأمانـة العلميـة ، أن يذكر الراوي الأسلوب الـذي تلقّى بـه الخبر ، أو الحقيقـة العلميـة التي ينقلها ، فإن كان بطريق المشاهـدة والسماع صرح بلفـظ (سمعت) أو نحوه وإن كان بطريق القراءة في كتـاب ، صرح بنحـو قـولـه (قرأت على فلان) أو (قرئ عليـه وأنـا أسمع) ، وإن كان ذلـك قـد نقـل في كتاب يتناوله المتعلم من شيخه ، صرح بـالمنـاولـة . وهكـذا ترك لنـا رواة الحديث ، في سبيل الدقـة والأمـانـة العلميـة ، أسـاليب تربويـة

وعلمية لنقل الحديث ونشر العلم ، سيأتي تفصيلها إن شاء الله في أواخر هذه الحلقة ، فأغنوا بذلك تراثنا التربوي ، وأثْروا ، بل سَمَوا بالأخلاق العلمية كخلق التواضع العلمي ، والحرص على الحقيقة ، والصراحة ، والصدق ...

هـ ـ نشأة علم الجرح والتعديل :

ومن نتائج حرص العلماء الأوائل على تحرّي الدقة والأمانة العلمية ، أنهم أنشؤوا علماً قائماً بذاته ، له ضوابطه وقواعده وأصوله ، من أجل التعرف على أحوال الرواة الذين نقلوا إليهم العلم ، وصدقهم ، ومدى اتصال كل راوٍ بمن روى عنه ، وللتعرف على عقيدتهم ، ومذهبهم ، لضمان عدم تحيزهم في نقل الأخبار ، والحقائق العلمية .

وقد ذكر ابن عبد البر رأيه في أصول هذا العلم وضوابطه الأساسية في (باب حكم قول العلماء بعضهم في بعض)[1] فقال : « والصحيح في هذا الباب أن من صحت عدالته ، وثبتت في العلم أمانته ، وبانت ثقته وعنايته بالعلم ، لم يلتفت فيه إلى قول أحد ، إلاّ أن يأتي في جرحته ببينة عادلة تصح بها جرحته ، على طريق الشهادات ، والعمل فيها من المشاهدة والمعاينة لذلك ، بما يوجب قوله ، من جهة الفقه والنظر ، وأما من لم تثبت إمامته ، ولا عرفت

---

(١) جامع بيان العلم ١٥٠/٢ ـ ١٧٤ مرجع سابق .

عدالته ، ولا صحت لعدم الحفظ والإتقان روايته ، فإنه يُنظر فيه إلى ما اتفق أهل العلم عليه ، ويُجتهد في قبول ما جاء به ، على حسب ما يؤدي النظر إليه »[1] .

ويؤخذ من قوله هذا : « اتفاق أهل العلم » في زمانه أو قبل زمانه ، على قواعد للنظر في الرواة والحكم على مدى ضبطهم وإتقانهم ، وصحة روايتهم ونقلهم . وقد نشأ علم (مصطلح الحديث)[2] لجمع هذه الضوابط والعمل بها ، وما يزال إلى يومنا هذا ، يعمل بها علماء الحديث ، ويحكمون على صحة الأحاديث ، أو ضعفها بموجب قواعده وضوابطه ...[2]

المبدأ الثامن

التعلم المستمر والصبر والمثابرة على طلب العلم

سجّل علماء الإسلام ، المربون الأوائل ، مقتدين برسول الله ﷺ ، سبقاً بهذا المبدأ التربوي ، ولم يُذكر في التربية المعاصرة إلاّ في

---

(١) المرجع السابق ١٥٢ . وسيتضح هذا الموضوع للقارئ إن شاء الله تعالى ، في بحث قادم هو (مبدأ التسامح والتحاب بين العلماء) .

(٢) وله كتب معروفة (كالباعث الحثيث) و (قواعد التحديث في مصطلح الحديث) للقاسمي .

هذا القرن الأخير (القرن العشرين للميلاد) . وقد طبقه علماء السلف على أفضل وجه وأشمله منذ ثلاثة عشر قرناً ، فكنت ترى حِلَق العلم ملأى بالشيوخ والكهول والشباب والصغار ، من مختلف الأعمار والطبقات الاجتماعية .

وقد أفرد ابن عبد البر باباً لهذا المبدأ وهو : (باب الحضّ على استدامة طلب العلم والصبر على اللأواء والنصب)[1] ، وأورد فيه بعض الأحاديث فروى حديثاً بسنده عن أبي الزبير عن جابر عن رسول الله ﷺ « إن من معادن التقوى تعلّمك ، إلى ما قد علمت ، علم ما لم تعلم . والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه ، وإنما يزهّد الرجل في علم مالم يعلم ، قلّةُ انتفاعه بما علم »[2] .

وحديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ : « من جاء أجله وهو يطلب علماً ليحيي به الإسلام ، لم تفضله النبيون إلا بدرجة »[3] .

وحديث أبي هريرة وأبي ذر مرفوعاً : « إذا جاء الموت طالب العلم وهو على تلك الحال مات شهيداً »[4] .

وأما الصحابة والتابعون فقد ذكر ابن عبد البر عنهم حكماً وأقوالاً وقواعد مشهورة كقول ابن عباس : « مَنْهومان لا تنقضي نهمتها :

(١و٢و٣)جامع بيان العلم مرجع سابق ٩٥/١

(٤) المرجع السابق ٩٦/١

طالب علم ، وطـالب دنيـا »[1] ، وقول مـالـك بن أنس : « لا ينبغي لأحـد يكون عنـده العلم أن يترك التعلّم »[2] ، وقـول نعيم بن حمـاد : « قيل لابن المبارك : إلى متى تطلب العلم ؟ قال : حتى الممات إن شاء الله »[3] ، وقول ابن منـاذر : « سـألت أبـا عمر بن العـلاء : حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ فقال : مـادامت تحسن بـه الحيـاة »[4] ، وقول سفيـان بن عيينــه حين سئـل « من أحـوج النــاس إلى طلب العلم ؟ فقـال : أعلمهم لأن الخطـأ منـه أقبح »[5] ، وقول المـأمون حين سـألـه المنصور بن المهدي « أيحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ فقـال : إن كان الجهل يعيبه فالتعلم يحسن به »[6] .

وهكذا أجمع علمـاء الأمـة الإسلاميـة على فضل **طلب العلم مـدى الحيـاة** وإن اختلفوا في تعليـل ذلـك لكنهم مجمعـون على استمرار طلب

---

(١) المرجع السابق ٩٥/١

(٢) المرجع السابق ٩٥/١

(٣-٤) المرجع السابق ٩٦/١

(٥) جامع بيان العلم ٩٦/١ ، سفيان بن عيينة : كان إماماً عالماً ، ثقة زاهداً ورعـاً . ولـد في الكـوفـة سنـة ١٠٧ هـ ، وسكن مكـة وتـوفي فيهـا سنــة ١٩٨ هـ ودفن بالحجون . أجمع الناس على صحة حديثه وروايتـه . حج سبعين حجـة . وشهـد له أبو حنيفة بالحفظ وهو ابن عشرين عاماً . كان يقول : ماعليـك أضر من علم لا تعمل به .

(٦) المرجع السابق ٩٦/١ والمأمون هو الخليفة العباسي المشهور .

ثواب التعلم وعلى أن طلب العلم من أفضل العبادات ؛ وكلما كبر الإنسان ازداد وعيه للذة المعرفة وشعوره بها . لذلك كان بعضهم يرى أن أواخر الحياة أجدى وأمتع لطلب العلم ، لما يتمتع به العالم من النضج والاستيعاب ، وفي هذا نقل ابن عبد البر عن خلف بن القاسم ماأنشده من أبيات لابن المبارك منها :

« آخر العلم لذيذ طعمه   وبديء الذوق منه كالصبر »[1]

المبدأ التاسع

تطهير العلم وتحريره من الأهواء والبدع

في كل أمة يظهر من حملة العلم والدين ، أصحاب هوى ، يبتدعون البدع حسب أهوائهم ، ويلصقونها بالعلم والدين ، أو يفسرون الظواهر الكونية تفسيرات وثنية لا تمت إلى الحقيقة بصلة ، وهذا مما يحط من قدر الأمة وينزل بها إلى درك الانحطاط الفكريّ . وقد حذّرنا الرسول ﷺ من ذلك وجعل ترك البدع ولزوم الهدي النبوي أصلاً من أصول الشريعة ومبدأ من مبادئ التربية الإسلامية ، وأمر بلزوم سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده .

---

(١) جامع بيان العلم ٩٧/١

وقد اهتم ابن عبد البر بهذا المبدأ وأفرد لـه بـابـاً في أواخر كتـابـه سماه : (بـاب الحضّ على لزوم السنـة والاقتصـار عليهـا)[1] استفتحـه بحديث : « تركت فيكم اثنتين ، لن تضلوا مـا إن تمسكتم بها : كتـاب الله وسنتي »[2] ، ثم ذكر شروحاً وأقوالاً عن بعض الصحابة كلها مشتقة من بعض ماورد في (خطبة الحاجة) الثابتـة عن رسول الله ﷺ من ذلك : « ما رواه بسنده عن عمرو بن مرة قـال : سمعت مرة الهَمَـدانيّ قال : قـال عبـد الله : إن أحسن الحـديث كتـاب الله وأحسن الهـدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتهـا .. »[3] وعن عبـد الله بن مسعود أنـه كان يقـوم يـوم الخميس قـائمـاً فيقـول : « إنمـا همـا اثنتـان الهـدي والكلام . فـأفضل الكلام وأصـدق الكلام كـلام الله ، وأحسن الهـدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتهـا . ألا وكل محـدثـة بـدعـة ، ألا لايتطـاولنّ عليكم الأمر فتقسو قلوبكم ، ولا يلهينكم الأمـل ، فـإن كل ماهو آت قريب » .

ثم ساق حديث العرباض بن سارية : « صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، فوعظنا موعظـة بليغـة ذرفت منهـا العيون ، ووجلت

(١و٢و٣)جامع بيان العلم ، مرجع سابق ٢/١٨٠ ـ ١٨١

(٢) رواه الحـاكم عن أبي هريرة بلفـظ : « تركت فيكم شيئين لن تضلـوا بعـدهمـا : كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا الحوض » .

منها القلوب ، فقيل يارسول الله ، كأنها موعظة مودّع فأوصنا فقال : عليكم بالسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً . فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين . عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »[1] ، وكانت الأهواء والبدع الاعتقادية قد بدأت في حياة من بقي من الصحابة بعيد الرسول ﷺ فكانوا يطبقون هذا المبدأ ، كما ورد عن ابن عباس قوله : « كلام الحرورية ضلالة وكلام الشيعة هلكة ، ولا أعرف الحق إلا في كلام قوم فوّضوا أمورهم إلى الله »[2] أي بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله . وكذلك من تبعهم بإحسان من التابعين ، والأئمة الأربعة ، كما نقل ابن عبد البر بسنده « عن الحسن بن أحمد بن الليث الرازي قال سألت أحمد بن حنبل فقلت : يا أبا عبد الله من تفضّل ؟ قال : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وهم الخلفاء ، فقلت : يا أبا عبد الله إنما أسألك عن التفضيل من تفضّل ؟ قال : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي . وهم الخلفاء المهديّون الراشدون ، وردّ الباب في وجهي »[3] .

---

(١) جامع بيان العلم - مرجع سابق ١٨١/٢ . رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح ، وخرجه الإمام أحمد بن حنبل وابن ماجه .

(٢-٣) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ١٨٤/٢

يؤخذ من جواب أحمد بن حنبل أنه يرى أن السؤال عن المفاضلة بين الخلفاء الراشدين أنفسهم بدعة ، وسبب من أسباب الخلاف والتفريق بما لا طائل وراءه لذلك أبى الجواب عن هذا السؤال ورد الباب في وجه السائل . من شدة حرصه على هذا المبدأ التربوي الإسلامي العظيم الحكيم ، وتمسّكه به .

المبدأ العاشر

التيسير والتدرّج في طلب العلم والتعليم

كان رسول الله ﷺ قدوة للمربين وقد اختطّ لنا هذا المبدأ التربوي الإسلامي فقال : « علّموا ولا تعنّتوا ، فإن المعلم خير من المعنّت »[1] وقد أراد بذلك من كل معلم ومربّ ألاّ يعنّت طلابه ، ولا يبكّتهم ، ولا يكثر عليهم من اللوم والتوبيخ والعنف في الكلام ، والقسوة في المعاملة ، ولو غضب المربي . بل أمره أن يسكت في حالة الغضب كما روي عن ابن عباس رفعه إلى النبي ﷺ قال : « علّموا ويسّروا ولا تعسّروا (ثلاث مرات) وإذا غضبت فاسكت ، وإذا

---

(١) جامع بيان العلم - مرجع سابق ١٢٨/١ . وقد رواه البيهقي في شعب الإيمان وابن عدي في الكامل .

غضبت فاسكت »[1] ولهذا المبدأ مظاهر وأساليب لتطبيقه أهمها :

مظاهر التيسير :

أ ـ من التيسير في طلب العلم ترك المراء وهو الجدل من أجل الغلبة . وقد أكثر ابن عبد البر من نقل الكلمات والحكم في هذا . ومنها ما نقل « عن ميمون بن مهران قال : لاتمار عالماً ولا جاهلاً . فإنك إن ماريت عالماً خزن عنك علمه ، وإن ماريت جاهلاً خشن بصدرك »[2] ، وقد وعد رسول الله ﷺ من ترك المراء وهو محق بقصر في الجنة[3] .

ب ـ ومن هذا المبدأ التدرج في طلب العلم والبدء بأيسره ثم طلب الشيء بعد الشيء وقد أفرد ابن عبد البر لهذا المعنى باباً نقل فيه (عن يونس بن زيد قال قال لي ابن شهاب : « لا تكابر العلم . فإن العلم أودية ، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه . ولكن خذه مع الأيام والليالي ، ولا تأخذ العلم جملة ، فإن من رام أخذه جملة ،

---

(١) جامع بيان العلم ١٢٨/١ ورواه أحمد وهو صحيح بلفظ « وإذا غضب أحدكم فليسكت » ، انظر صحيح الجامع الصغير للألباني ٣٨/٤ رقم ٣٩١٥

(٢) جامع بيان العلم ١٢٩/١

(٣) صحيح الجامع الصغير للشيخ ناصر الألباني ١٧/٢ رقم الحديث ١٤٧٧ ط المكتب الإسلامي ببيروت .

ذهب عنه جملة . ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي »[1] ، ومكابرة العلم هنا أن يعتقد طالب العلم أن قدرته وهمته أكبر من العلم وأنه قادر على نيله مرة واحدة . فهذا ليس من التيسير على النفس بل هو شأن المنبتّ ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، فعلى طالب العلم والمعلم أن يأخذا به شيئاً فشيئاً .

جـ ـ ومن التيسير في طلب العلم التأني في إعطاء جرعات خفيفة من المعلومات والمواعظ وعدم الإطالة لئلا يملّوا ، وفي ذلك قال ابن مسعود[2] حين خرج فوجد الناس ينتظرونه : « إني لأخبر بمجلسكم فما يمنعني من الخروج إليكم إلا كراهية مللكم ، وإن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا »[3] .

د ـ ومن ذلك مزج المسائل العلمية بحديث عادي أو فكاهة أو شيء من الشعر وكلام العرب كما روى ابن عبد البر عن عمار بن غزية قال : « كان القاسم بن محمد إذا أكثروا عليه من المسائل قال : إن

---

(١) جامع بيان العلم ١٠٤/١

(٢) هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ، من السابقين إلى الإسلام (سادس ستة أسلموا) قال له الرسول ﷺ « إنك غلام معلّم » ، وكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ في مكة ، شهد المشاهد كلها والغزوات وولي على بيت مال الكوفة في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعاً .

(٣) جامع بيان العلم ١٠٥/١

لحديث العرب وحديث الناس نصيباً من الحديث ، فلا تكثروا علينا من هذا »[1] ، و « عن الأعمش قال حدثنا أبو خالد الوالي قال : كنا نجالس أصحاب النبي ﷺ فيتناشدون الأشعار ويتذاكرون أيامهم في الجاهلية »[2] .

وهذا الأسلوب ـ من تيسير العلم بالطرائف والأمثال والحكم ـ وسيلة هامة لجمع القلوب على محبة العلم كما قال علي رضي الله عنه : « جمعوا هذه القلوب وابتغوا لها طرائف الحكمة ، فإنها تمل كما تمل الأبدان »[3] ، وكما روي عن الزهري قال : « كان بعض العلماء يقول : هاتوا من أحاديثكم ، هاتوا من أشعاركم ، فإن الأذن مجّاجة ، والنفس حَمِضة »[4] أي تميل إلى ماتتحمض به من الشعر والطرف .

وهكذا ينبغي للمعلمين أن ييسّروا العلم والتعليم على الأحداث وغيرهم وأن يكثروا من وسائل هذا التيسير لئلا يكره الطلاب والتلاميذ المدارس والجامعات ، ولئلا تصبح مجرد سجون أو مخازن لحشو الأدمغة بالمعلومات ، دون محبة أو تذوق ، فالقصة المفيدة ، والفكاهة البريئة ، والرفق بالأحداث ، والتدرج ، كل ذلك من التيسير الضروري على طلاب العلم ، وقد سبق إليه علماؤنا كما رأينا .

(١و٢و٣و٤) المرجع السابق ١٠٥/١

المبدأ الحادي عشر

التسامح والتعاون بين العلماء

يؤخذ هذا المبدأ من باب عقده ابن عبد البر لبيان أساس من أسس (علم الجرح والتعديل)[1] وهو : (باب حكم قول العلماء بعضهم في بعض)[2] وقد استفتحه ابن عبد البر بحديث عن رسول الله ﷺ ، يحذر فيه أمته من الحسد والبغضاء . ولا غرو ، فهاتان الخصلتان هما سبب انهيار التعاون والمحبة والتسامح بين العلماء .

ومن الطبيعي أن يطلب منا رسول الله ﷺ الحذر من كل حسد أو تباغض ، لأن الخلاف في الرأي لابد واقع ، ولكن الذي يجب الحذر منه أن يجر هذا الخلاف إلى حزازات في النفوس ، ووجد في القلوب . لذلك أثبت ابن عبد البر هذا الحديث ؛ في مطلع هذا الباب : عن الزبير بن العوام أن رسول الله ﷺ قال : « دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، البغضاء هي الحالقة . لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين . والذي نفس محمد بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا . ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم ؟ أفشوا السلام بينكم »[3] .

---

(١) سبقت الإشارة إلى هذا العلم في أواخر المبدأ السابع .

(٢ - ٣)جامع بيان العلم ١٥٠/٢ مرجع سابق .

وقد بيّن لنا الحديث أهم وسيلة لتحقيق هذا المبدأ ، وهي إفشاء السلام بمعناه الواسع . السلام بالتحية عند اللقاء ، والمسالمة عند الاختلاف في الرأي ، لئلا ينقلب هذا الخلاف إلى بغضاء وخصومة وحزازات في النفوس ... وقد ضرب لنا ابن عبد البر مثلاً من اعتناق بعض السلف لهذا المبدأ فيما رواه بسنده إلى أن قال : « حدثني عبد العزيز بن حازم ، قال : سمعت أبي يقول : العلماء كانوا فيما مضى من الزمان إذا لقي العالم من فوقه في العلم كان ذلك يوم غنيمة ، وإذا لقي من هو مثله ذاكره ، وإذا لقي من هو دونه لم يَزْهُ عليه ، حتى كان هذا الزمان ، فصار الرجل يعيب من هو فوقه ابتغاء أن ينقطع منه ، حتى يرى الناس أنه ليس به حاجة إليه ، ولا يذاكر من هو مثله ، ويُزهَى على من هو دونه . فهلك الناس »[1] .

ويبدو من تأمل هذا الأثر أن من مظاهر تحقيق هذا المبدأ التربوي :

أ ـ احترام من هو أعلم والمبادرة إليه لأخذ العلم منه وهذا معنى قوله « إذا لقي العالم من هو فوقه في العلم كان ذلك يوم غنيمة » .

ب ـ أن يذاكر العالم نظيره في العلم « وإذا لقي من هو مثله ذاكره » .

---

(١) جامع بيان العلم ١٥١/٢ ، وكنيته أبو حازم .

جـ ـ التعاطف مع من هو دونـه ، ليعلّمـه ويربيـه على التواضع والخلق الفاضل والعلم الصحيح .

غير أن أبا حـازم رحمه الله[1] يتـأسف لمـا حصل في زمـانـه من التحاسد بين العلماء حتى غيّروا تلك المظـاهر وسـاروا على نقيضهـا في علاقاتهم العلمية والاجتماعيـة ، وأصبحت الغيرة والتعصب همـا المنطلق والمبدأ لكثير من علاقاتهم ونظرتهم إلى من حولهم ...

وقـد أفـاض ابن عبـد البر في ذكر مظـاهر التعصب والتحـاسـد وأسبابها بين العلماء ، وهي لا تخلو من عبرة وفائـدة ، لـذلـك صنفتهـا وحاولت استنباط علاجها على النحو التالي :

بعض أسباب التعصب والتحاسد بين العلماء

يجدر بالباحث ، بعد أن استعرض مظاهر التسامح وأسـاسـه من السنة ، أن يستعرض مدى تقيّد العلماء به ، وأسباب بعـدهم عنـه سيراً مع ماكتبه ونقله أبو عمر ، يوسف بن عبد البر ، ما دامت هذه الحلقـة قد خصصت لاستجلاء آرائه التربوية رحمه الله ، فمن هذه الأسباب :

---

(١) لعله أبو حازم سلمة بن دينـار المـدني ، الزاهـد الحكيم . مولى الأسود بن سفيـان المخزومي ، عالم المـدينـة وواعظهـا . توفي سنـة ١٤٠ هـ وقيل ١٤٤ وقيل ١٣٥ / شـذرات الـذهب ٢٠٨/١ ، وتهـذيب التهـذيب ١٤٤/٤ ، وللتـوسـع حـول هـذه الفكرة انظر كتـاب (أدب الخلاف) من سلسلـة كتـاب الأمـة للشيخ عبـد الله علوان .

أ ـ الرياء والزهوّ بالعلم وطلب السمعة والشهرة :

والرياء هو مراءاة الناس ، وطلب مرضاتهم وإعجابهم ومدحهم للعالم .. وقد بين ذلك أبو حازم في معرض كلامه على الناس في زمانه إذ قال : « فصار الرجل يعيب من فوقه ابتغاء أن ينقطع منه ، حتى يرى الناس أنه ليس به حاجة إليه »[1] فبين لنا كيف يعيب العالم من هو أعلم منه ويتعصب ضده من أجل الرياء .

ومن أسباب هذا الرياء ، الانقطاع إلى الدنيا وشهوة الرئاسة والسمعة ، والبعد عن الإخلاص وعن ابتغاء وجه الله في طلب العلم . وقد أدرك الإمام الزهري أهمية الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة للعالم الذي يستلم الريادة في مجال من مجالات العلم ، وذلك حينما سئل أن يجلس للناس في مسجد رسول الله ﷺ بقيّة عمره ، فقال :

« أما أنه لا ينبغي لي أن أفعل ذلك حتى أكون زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة »[2] ولعل هذا الزهد هو العلاج لذلك الرياء ؛ فالمرائي الغافل عن الآخرة وعن مرضاة الله ، يخشى أن يرى الناس أن غيره أعلم منه ، فيعمل على غمط العلماء والحط من مقدارهم ، طمعاً في أن يحفظ لنفسه مكانة مرموقة ينفرد بها عند الناس ، فيبقى وحده

(١ ـ ٢)جامع بيان العلم ١٥٢/٢ مرجع سابق .

هو المتفوق في نظرهم ، ولو كان يخشى الله واليوم الآخر ، ويرغب في ثوابه ، لما راقب الناس ، ولما نظر إلى الموضوع بهذا المنظار .

ب ـ التحاسد والتغاير :

وهو أن يحسد أدعياء العلم بعضهم بعضاً ويغار بعضهم من بعض ، أن يكون أحدهم أعلى منزلة من الآخر ، لذلك يحاول أن يقدح فيه ، ويحطّ من قدره . ولهذا حذّر ابن عباس ، وتبعه مالك بن دينار وسعيد بن المسيّب ، ووافقهم ابن عبد البر ، حذّروا جميعهم من أن نصدّق كلام العلماء بعضهم في بعض وعللوا ذلك بالغيرة كما نقلوا عن ابن عباس : « استمعوا علم العلماء ولا تصدقوا قولهم بعضهم في بعض » ، وفي رواية : « خذوا العلم حيث وجدتم ، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض ، فإنهم يتغايرون تغاير التيوس[1] » ، ولبيان هذا السبب قال ابن عبد البر : « ومنه ماحمل عليه الحسد ، كما قال ابن عباس ومالك بن دينار وأبو حازم »[2] .

جـ ـ الغضب ، والتسرع في الحكم عند الغضب : من ذلك ماروى ابن عبد البر « عن طاووس قال : كنت جالساً عند ابن عمر ، فأتاه رجل فقال : إن أبا هريرة يقول : إن الوتر ليس بحتم ، فخذوا منه

---

(١) جامع بيان العلم ١٥١/٢ مرجع سابق .
(٢) جامع بيان العلم ١٥٢/٢

ودعـوا . فقـال ابن عمر : كـذب أبـو هريرة . جـاء رجـل إلى رسـول الله ﷺ فسـألـه عن صـلاة الليـل فقـال : مثنى مثنى ، فـإذا خشيت الصبح فواحدة[1] » ، ومن ذلك قول ابن عبـد البر « وكـذّبت عـائشـة ابن عمر في عـدد عمر رسـول الله ﷺ ، وفي أن الميت يُعـذّب ببكاء أهله عليه »[2] . وقد ذكرنا ذلك في كتاب التمهيد .

ثم علق ابن عبـد البر على مثـل هـذه المـواقف ، مـواقف الغضب فقال : « وقد كان بين أصحاب رسول الله ﷺ ، وجلّة العلماء ، عنـد الغضب ، كـلام هـو أكثر من هـذا . ولكن أهـل الفهم والعلم والميز لا يلتفتون إلى ذلك ، لأنهم بشر يغضبون ويرضون . والقول في الرضا غير القول في الغضب . ولقد أحسن القائل :

لا يعرف الحلم إلاّ سـاعـة الغضب »[3] فعـلاج هـذا السبب ، كما يؤخذ من تعليق ابن عبد البر يكون في أمرين :

الأول : أن يملك الغاضب لسانه ولا يطلقه في الذَم أو التكـذيب عندما يشعر بالغضب وهذا معنى قول الشاعر الذي أورده :

لا يعرف الحلم إلاّ ساعة الغضب

---

(١) جامع بيان العلم ١٥٤/٢ ـ ١٥٥

(٢و٣) جامع بيان العلم ١٥٥/٢

الثاني : ألاّ يلتفت الناقلون للعلم إلى مثل هذه الأقوال التي قيلت ساعة الغضب ، كما قال ابن عبد البر : « ولكن أهل العلم والميز لا يلتفتون إلى ذلك فلا يؤخذ بما يقال عند الغضب لأن القول في الرضا غير القول في الغضب » .

ويجب أن نعلم أن مثل قول (ابن عمر) في رأي رآه أبو هريرة : « كذب أبو هريرة » لا يعني اتهامه بتعمّد تغيير الحقائق وهو يعلم أن الحق خلاف ما قال ، بل يعني أن أبا هريرة قال قولاً مخالفاً لما يعتقد ابن عمر أنه الحق في هذا الموضوع بالذات ، فهناك فرق بين من يكذب وهو لا يعلم أنه يخالف الحقيقة ، وبين من (يفتري الكذب) كما هو واضح في الاستعمال القرآني الذي غلب فيه التهديد لمن (يفتري الكذب) .

وقد نقل عن عدد من الصحابة استعمال لفظ (كذب) على نحو ما استعمله (ابن عمر) فقد نقل عن الحسن بن علي في حق ابن عمر ، والزبير[1] ؛ ونقل عن عبادة بن الصامت قال : « كذب أبو محمد »[2] يعني مسعود بن أوس الأنصاري البدري ، ولا يمكن تأويله إلا بما ذهبت إليه[3] والله أعلم .

(١و٢) جامع بيان العلم ١٥٥/٢ مرجع سابق .

(٣) هذا اجتهاد من الباحث وليس من آراء ابن عبد البر التربوية .

د ـ السبب الرابع النميمة :

وصورتها هنا أن ينقل بعض طلبة العلم الذم من بعض العلماء إلى المذموم ، أو قول بعضهم خلاف ماقاله البعض الآخر . إما بسوء نية بقصد الإيقاع بينهم لكسب الحظوة عند كل منهم ، وإما بحسن نية بقصد الوصول إلى الحق من مقارنة أقوالهم بعضها ببعض . فيضيق صدر بعض العلماء ويسارع إلى ذم من نُقِل إليه قوله ، ويعود النّمام لينقل الذم بدوره إلى الآخر ... وعلى هذا النحو وقع الخلاف والجفاء بين سعيد بن المسيّب وعكرمة . فقد « سأل رجل سعيد بن المسيب عن رجل نذر نذراً لاينبغي له من المعاصي ، فأمره أن يوفي بنذره ، فسأل الرجل عكرمة ، فأمره أن يكفّر عن يمينه ولا يوفي بنذره . فرجع الرجل إلى سعيد بن المسيّب فأخبره بقول عكرمة ، فقال ابن المسيب : لينتهينّ عكرمة أو ليوجعنّ الأمراء ظهره . فرجع الرجل إلى عكرمة فأخبره . فقال عكرمة : أمّا إذا بلّغتني فبلغه : أما هو فقد ضربت الأمراء ظهره وأقفوه في تبان من الشعر . وسله عن نذرك : أطاعة هو لله أم معصية ؟ فإن قال هو طاعة فقد كذب على الله . لأنه لا تكون معصية الله طاعة . وإن قال هو معصية فقد أمرك بمعصية الله ! قال المروزي : فلهذا كان بين سعيد بن المسيّب وبين عكرمة ماكان[1] » .

---

(١) المرجع السابق ١٥٦/٢

هـ ـ ومن أسباب التباغض والتعصب الاختلاف في العقيدة أو المذهب الاعتقادي يؤيد ذلك ما قاله ابن عبد البر بعد أن ذكر تكذيب مالك بن أنس لمحمد بن إسحاق : « وربما كان تكذيب مالك لابن إسحاق في تشيّعه وما نسب إليه من القول بالقدر . وأما الصدق والحفظ ، فكان صدوقاً حافظاً أثنى عليه ابن شهاب ووثقه شعبة والثوريّ وابن عيينة وجماعة جلّة »[1] ، وعلاج هذا حصر النقد والتخريج في حدود المذهب أو الاعتقاد ، وإنصاف المتكلم عنه فيما سوى ذلك . كما يلاحظ في تعليق ابن عبد البر هنا .

و ـ ومن هذه الأسباب التقليد بغير برهان :

قال ابن عبد البر : « وقد روي عن مالك أنه قيل له : من أين قلت في محمد بن إسحاق أنه كذاب ؟ فقال : سمعت هشام بن عروة يقوله ، وهذا تقليد لا برهان عليه »[2] .

قلت : ومن التقليد بغير برهان ذمّ أتباع كل مذهب ، لعلماء مذهب آخر ، تقليداً بدون برهان ، فتتسع الشقة بين المذاهب ويتباغض المسلمون وهذا من أسوأ ما وقعت فيه الأمة في عصور انحطاطها ، وعلاج هذا السبب تربية أجيال المسلمين على طلب

(١-٢) المرجع السابق ١٥٦/٢

البرهان والـدليل على كل خبر أو حكم ، وعـدم التقليـد الأعمى . قـال تعالى : ﴿ قُلْ هاتوا بُرْهانَكُمْ ﴾[1] .

ز ـ ومن هذه الأسباب التشنيع على العلماء لمخالفتهم في الفروع :

وعلاج هذا السبب أنه إذا كان اختلاف الاجتهاد سبباً للاختلاف في أحكام الفروع والعبادات فإن المجتهد المخطئ يثاب ولـه أجر واحـد كما ثبت في بعض الأحـاديث عن رسـول الله ﷺ ، ومعنى هـذا أنـه لا يجوز عداوة مجتهد أو اغتيابه والطعن فيه بسبب خطئـه هـذا الـذي يثاب على اجتهـاده فيـه ، لكن نقل عنهم الكثير من التعصب في مثل هـذه المواقف سـامحهم الله ! من ذلـك مـا روى ابن عبـد البر مصرحـاً بسنده وبالتحـديث ... إلى قولـه : « سمعت الفضل بن موسى يقول : دخلت مع أبي حنيفة على الأعمش[2] نعوده فقال أبو حنيفة : ياأبا محمد لولا التثقيل عليك ، لزدت في عيادتك ، أو قـال : لعـدتـك أكثر ممـا أعودك . فقـال لـه الأعمش : والله إنـك لثقيـل علي وأنت في بيتـك ،

---

(١) سورة البقرة ١١١/٢ وسورة الأنبياء ٢٤/٢١ ، وسورة النمل ٦٤/٢٧

(٢) الأعمش : لقب الإمام أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي . روى عن ابن أبي أوفى وغيره ، وكان محدث الكوفة وعالمها . ولـد سنـة إحـدى وستين ، وتوفي في ربيـع الأول سنـة ١٤٨ هـ وكان رحمـه الله واسع البـاع في الفرائض وحفـظ الحديث .

فكيف إذا دخلت علي ؟! قال الفضل : فلما خرجنا من عنده قال أبو حنيفة : إن الأعمش لم يصُمْ رمضان قط ، ولم يغتسل من جنابة . فقلت للفضل : مايعني بذلك ؟ قال : كان الأعمش يرى الماء من الماء ، ويتسحّر على حديث حذيفة »[1] .

(١) جامع بيان العلم ١٥٧/٢ ، والذي سمع هو أحد الرواة ، وقد اختصرنا السند .

الفصل الرابع

آداب طلب العلم

خصص ابن عبد البر باباً لهذه الآداب بعنوان (باب جامع في آداب العالم والمتعلم)[1] ومنه يستطيع الباحث أن يلتقط ويجمع ويستنبط بعض الأنظمة السلوكية ، والآداب الاجتماعية ، والصفات التربوية والخلقية لكل من المعلم والمتعلم ، إذ يجدها منثورة في مختلف أبحاث هذا الباب ، وفيها قواعد لتنظيم العلاقات الفكرية ، والروحية ، والاجتماعية بين المعلم والمتعلم ، مما يدل على سمّو الروح وصدق الوجدان . وقد اقتصرت على أهمها وعرضته عرضاً موجزاً ، واضحاً ، فوجدت بينها وبين بعض المبادئ السابقة علاقة واضحة ، فهي منبثقة عنها ، وبعضها تطبيق عملي لها ، ويقابل بعض هذه الآداب في التربية المعاصرة مايسمى بـ (صفات المربي) وبعضها الآخر فيه مراعاة لحال المتعلم واسلوب معاملته . ومن هذه الآداب :

(١) جامع بيان العلم وفضله ١٢٥/١

الأدب الأول : التواضع وترك الدعوى والعجب بالنفس

وقد عقد ابن عبد البر فصلاً لهذه الصفة من صفات المربي . عنوانه : (فصل في مدح التواضع وذم العجب)[1] استفتحه بقوله :

أ ـ « ومن أفضل آداب العالم تواضعه ، وترك الإعجاب بعلمه ، ونبذ حب الرياسة »[2] وأيّد رأيه هذا بحديث ساقه بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مانقصت صدقة من مال . وما زاد الله عبداً بعفو إلاّ عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »[3][4] ، ثم ساق حديثاً آخر بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل يأمركم أن تتواضعوا ، ولا يبغ بعضكم على بعض »[5] وروى من وجوه « عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول : إن العبد إذا تواضع لله رفعه الله بحكمته ، وقيل له انتعش ، نعشك الله فهو في نفسه حقير.وفي أعين الناس كبير »[6] ويظهر من كلام عمر أن من أهم معاني

(١و٢و٣و٦) جامع بيان العلم ١٤١/١

(٤) رواه مسلم ، والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢٣٥/٢ و ٤٣٨ ط. القاهرة سنة ١٣١٣ هـ.

(٥) جامع بيان العلم ١٤١/١ ونقل مثله النووي عن صحيح مسلم بلفظ « إن الله أوحى إليّ أن تتواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد » رياض الصالحين ١٣٣ ط. شركة الشمرلي بمصر والإسكندرية .

التواضع أن يرى الإنسان نفسه صغيراً مقصراً فلا يزهو ولا يتكبر .

ب ـ ومن مستلزمات هذا الأدب أن يكون التواضع من الطرفين المعلم والمتعلم ولذلك أورد ابن عبد البر في أول هذا الباب حديثاً بسنده عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « تعلموا العلم وتعلّموا له السكينة والوقار ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ولا تكونوا جبابرة العلماء »[1] وهكذا أمر طالب العلم بالتواضع لأستاذه . اعترافاً بفضله في العلم والتعليم وبذلك يربى على الاعتراف بالجميل ، والشكر على المعروف وهو من نتائج أدب التواضع ، وكذلك أمر العالم بالتواضع « ولا تكونوا جبابرة العلماء » .

جـ ـ ومن مظاهر هذا الأدب ، أن يترك العالم الدعوى والفخر كما قال ابن عبد البر : « ومن أدب العالم ترك الدعوى لما لا يحسنه ، وترك الفخر بما يحسنه ، إلا أن يضطر إلى ذلك ، كما اضطر يوسف عليه السلام حين قال : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[2] وذلك أنه لم يكن بحضرته من يعرف حقه فيثني عليه بما هو فيه ، ويعطيه بقسطه ، ورأى أن ذلك المقعد لا يقعده غيره من أهل وقته إلا قصّر عما يجب لله من القيام به من حقوقه فلم يسعه إلا

---

(١) جامع بيان العلم ١٢٥/١ مرجع سابق .

(٢) سورة يوسف ٥٥/١٢

السعي في ظهور الحق بما أمكنه ، فإذا كان ذلك فجائز للعالم حينئذ الثناء على نفسه ، والتنبيه على موضعه ، فيكون حينئذ يحدث بنعمة ربه عنده على وجه الشكر لها ... وأفضح مايكون للمرء : دعواه بما لا يقوم به . وقد عاب العلماء ذلك قديماً وحديثاً »[1] . ويدل كلام ابن عبد البر هذا على أن من مظاهر التواضع :

١ ـ صدق العالم والبعد عن ادعاء ما لا يعلم .

٢ ـ أن يترك الفخر بما يحسنه لأن هذا الفخر ينقص من قدره ، فالتواضع خير له عند الله لقوله ﷺ « .. وما تواضع أحد لله إلا رفعه »[2] وأبقى لمكانته وهيبته عند الناس .

٣ ـ يجوز للعالم الثناء على نفسه بما هو فيه عند الاضطرار إذا لم يوجد من يقوم مقامه في ذلك ، لئلا تضيع مصلحة يظن أنه يحققها على الوجه الأفضل ، لو عرف قدره ، وعلمه ، وخبرته ، كقول يوسف : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[3] .

---

(١) جامع بيان العلم ١٤٥/١

(٢) جامع بيان العلم ١٤١/١ ، وهذا شطر حديث أورده ابن عبد البر مطلعه : « مانقصت صدقة من مال ... » .

(٣) سورة يوسف ٥٥/١٢

الأدب الثاني : الحلم والرفق

وهـذا الأدب من صفـات المربي التي تتعلـق بـأسلـوب معـاملتـه لطلابه . ويؤخذ من الأحاديث التي ساقها ابن عبد البر في هذا الباب أن الحلم من ضرورات العلم ، ولا يكتمل علم بغير حلم ، ولا شيء يـزين العلم إلا الحلم والتواضع ، ومن نتـائج الحلم الصبر على المتعلمين ، وسعـة الصـدر ، وتحمـل أسئلتهم وكسـل بعضهم ، وغبـاء بعضهم الآخر ، وطيش الصغـار منهم ، لـذلـك كان الحلم بمعنـاه الواسع الشـامـل لكل ما سبق نادراً ، كما روى ابن عبد البر حديثاً بسنده عن معـاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « مـا أنزل الله شيئـاً أقل من اليقين ، ولا قسم بين الناس شيئاً أقل من الحلم ، وما أُووِيَ شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم ، فـالحلم من أفضـل مـا يـزين العلم »[1] . وقـد روى ابن عبـد البر هـذا الشطر الأخير من الحـديث من ثـلاث طرق أخرى موقـوفـاً على عطـاء بن يسـار ، بلفـظ : « مـا أُووِيَ شيء ... »[2] وبلفـظ : « ولم يُـؤْوَ شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم » ؛ « وقـال بقيـة عن إبراهيم بن أدهم ومحمـد بن عجـلان مـا من شيء أشـد على الشيطان من عالم حليم . إن تكلم تكلم بعلم ، وإن سكت سكت بحلم .

(١و٢) جامع بيان العلم ١/١٢٥ ـ ١٢٦

يقول الشيطان : انظروا إليه كلامه أشدّ عليّ من سكوته »[1] ، وعن عيسى بن حماد أنّ الليث بن سعد كان يقول لأصحاب الحديث : « تعلّموا الحلم قبل العلم »[2] .

الأدب الثالث : الترحيب بالأحداث وتعليمهم والتلطّف بهم

وهذا أيضاً مما يتعلق بمعاملة الطلاب ، وقد أفرد ابن عبد البر فصلاً لهذا الأدب من آداب المعلمين فقال : « فصل[3] : وروينا عن أبي هارون وشهر بن حوشب ؛ قالا : كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدري يقول : مرحباً بوصية رسول الله ﷺ . قال رسول الله ﷺ : « ستفتح لكم الأرض ويأتيكم قوم ـ أو قال غلمان ـ حديثة أسنانهم ، يطلبون العلم ، ويتفقهون في الدين ويتعلمون منكم ، فإذا جاؤوكم فعلموهم والطفوا بهم ، ووسّعوا لهم في المجلس ، وأفهموهم الحديث » قالا : فكان أبو سعيد يقول لنا : مرحباً بوصية رسول الله ﷺ . أمرنا رسول الله ﷺ أن نوسع لكم في المجلس ، وأن نفهمكم الحديث »[3] .

---

(١) جامع بيان العلم ١٢٦/١

(٢) جامع بيان العلم ١٢٧/١

(٣) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ١٤٥/١ ـ ١٤٦

ويستنبط من هـذا الفصل عـدد من الآداب الخـاصـة بتعليم الأحداث والوافدين

أ ـ بذل عناية خاصة بالأحداث والتلطف بهم إذا طلبوا العلم .

ب ـ الترحيب بالوافدين من بلاد أخرى لطلب العلم وتعليمهم .

جـ ـ التوسيع في المجلس لطالب العلم ، وللوافدين الراحلين لطلب العلم .

د ـ إفهام المتعلم ما يريد تعلّمه وعدم الاقتصار على الاستحفاظ ، بدليل لفظ : « وأفهموهم الحديث » .

الأدب الرابع : احترام العالم والتأدب بحضرته وتوقيره

ثبتت مشروعية توقير العالم عن عدد من الصحابة والتابعين ، منها قول طاووس : « من السنة أن توقر العالم »[1] ، وقول علي بن أبي طالب : « وعليك أن توقره مادام يحفظ أمر الله »[2] ، وقول أيوب بن القرية : « أحق الناس بالإجلال ثلاثة : العلماء والإخوان والسلاطين »[3] .

(١و٢) جامع بيان العلم ١٢٩/١

(٣) جامع بيان العلم ١٤٦/١ وقد أورد هذين القولين بدون سند خلافاً لعادته .

ومن أوفى ماجاء في توقير العالم ماروي عن علي بن أبي طالب وقه صنفته في فقرات ونقلته عن ابن عبد البر ، رحمه الله : « ويروى عن علي بن أبي طالب أنه قال : من حق العالم عليك :

أ ـ إذا أتيته أن تسلم عليه خاصة وعلى القوم عامة .

ب ـ وتجلس قدّامه لا تغمز بعينيك ولا تشر بيدك .

جـ ـ ولا تأخذ بثوبه ولا تلح عليه في السؤال (وفي رواية أخرى وألاّ تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض)[1] .

د ـ ولا تقل : قال فلان خلاف قولك .

هـ ـ وفي الرواية الأخرى : ولا تفشينّ له سراً[2] .

و ـ وفي الرواية الأخرى : وإن زلّ قَبِلْتَ معذرته[3] »[4] .

فهذه ستة آداب مما يتعلق بتوقير المعلم وإجلاله ، فهي من أدب المتعلم مع المعلم ، ممّا افتقدناه في التربية الحديثة . فقد أصبح علماء

(١و٢و٣)جامع بيان العلم ١٢٩/١ وقد أورد ابن عبد البر هذه الرواية بسند متصل إلى علي كرم الله وجهه . أما الرواية السابقة فبدون سند ، وقد درجت على نقل كل ماروواه على مسؤوليته ، واختصر الأسانيد ، تسهيلاً على القارئ ، كما بينت في المقدمة .

(٤) جامع بيان العلم ١٤٦/١ وقد أورد هذين القولين بدون سند خلافاً لعادته .

التربيـة اليوم يهتمون بـأدب المعلم مع طلابـه وأسلوبـه في معـاملتهم ولا تكاد تجد بحثاً تربوياً يهتم بأدب المتعلم مع المعلم ، مع أنـه أحـد شطري العمليـة التربويـة ، وأحـد طرفي العلاقـة التربـويـة فـلا بـد لكل من الطرفين أن يحسن السلـوك والتعـامـل مـع الطرف الآخر حتى تنجـح هذه العلاقة والعملية وتأخذ أبعادهـا وتعطي نتـائجهـا . أمـا التربيـة الإسلامية فهي ، كما يُلاحَظ ، تقف موقفاً موضوعيـاً معتـدلاً وتـدرس العلاقة التربوية من كل أطرافها وجوانبها .

الأدب الخامس : كمال المظهر ، ووقار السلوك

تهتم التربيـة بمظهر المربي ، وسلـوكـه ، لمـا لـه من بليـغ الأثر في نفـوس طـلابـه . وقـد ذكر ابن عبـد البر عـدداً وافيـاً من آداب المعلم السَّمْتيّة والسلـوكيـة ، وقـد رتبتهـا في فقرات ليسهـل فهمهـا ويجمـل عرضها قال ابن عبد البر : « وقالوا : من تمام آلة العالم :

أ ـ أن يكون مهيباً وقوراً بطيئ الالتفات قليل الإشارة .

ب ـ ألاّ يصخب ولا يلعب ولا يجفـو ولا يلغــو »[1] لأن ذلــك يقلل من قـدره ويحـط من مكانتـه عنـد طلابـه ، فلا يستفيـدون من عمله .

---

(1) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ١٤٦/١

جـ ـ وأن يتأدب بأدب الإسلام لقول ابن عبـد البر : « بلغني أن إسماعيل بن إسحاق قيل له : لو ألفت كتاباً في آداب القضاء . فقال : وهـل للقـاضي أدب غير أدب الإسـلام ؟ »[1] ، فـإذا كان هـذا شـأن القاضي فهو بالعالم أجـدر . وهـذا مـا أراده ابن عبـد البر من ذكر قول ابن إسحـاق هـذا ، فهـو تفسير ودعم لقـول ابن عبـد البر الـذي سبقـه حيث قال مشيراً إلى الآداب السابقـة : « وقـد قيل أن هـذا لا يُحتـاج إليه مع أداء ماالله عليه »[2] مشيراً إلى ماسبق من الآداب ثم برهن عليه بما بلغه عن ابن إسحاق .

الأدب السادس : أن يضع علمه حيثُ يُنتفَع به

« وألاّ يناظر جاهلاً ولا لجوجاً فـإنـه يجعل المنـاظرة ذريعـة إلى التعلم بغير شكر »[3] . وروى ابن عبـد البر في هـذا الأدب أثراً بسنـده عن شعبـة قـال : « رآني الأعمش وأنـا أحـدث قـومـاً فقـال : ويحـك يـا شعبـة ! تعلق اللؤلـؤ في أعنـاق الخنـازير ؟! »[4] وروى حـديثـاً بسنـده حـول هـذا المعنى ... حـدثنـا الأعمش قـال : قـال رسـول الله ﷺ : « آفـة العلم النسيـان وإضـاعتـه أن تحـدث بـه غير أهله »[5] . و « عن الحجاج بن أرطاة قـال : قـال عكرمـة : إن لهـذا

(١و٢و٣)جامع بيان العلم ، مرجع سابق ١٤٦/١

(٤و٥) جامع بيان العلم ١٠٨/١

العلم ثمناً . قيل : وما ثمنه ؟ قال : أن تضعه عند من يحفظه ولا يضيعه »[1] .

الأدب السابع : حول أسئلة الطلاب

يهتم علم المناهج وطرق التدريس بأسئلة الطلاب لما لها من فوائد جمة ودلالة تربوية ، وقد أولى علماؤنا هذا الموضوع مايستحق من الاهتمام ، فقد عقد ابن عبد البر باباً لهذا الأدب عنوانه : (باب حمد السؤال والإلحاح في طلب العلم وذم مامنع)[2] ، استفتحه بقول رسول الله ﷺ : « شفاء العيّ السؤال »[3] وبآثار عن الصحابة والتابعين ، منها : أثر عن عائشة زوج الرسول ﷺ قالت : « رحم الله نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن »[4] . ومنها أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « زيادة العلم الابتغاء ،

---

(١) جامع بيان العلم ١٠٩/١

(٢) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ٨٧/١

(٣) جامع بيان العلم ٨٧/١ ، وفي ٨٨ أورده ابن عبد البر عن ابن عباس ، ولكن المحقق خرّجه في الحاشية ص ٨٧ ، وخلاصة تخريجه « رواه أبو داود والدارقطني عن جابر مطوّلاً : وسبب وروده أن رجلاً شُجّ في سفر ، فاحتلم ، فسأل أصحابه أن يتيمم فمنعوه فاغتسل فمات ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العيّ السؤال » .

(٤) جامع بيان العلم ٨٧/١

ودرك العلم السؤال ، فتعلم ما جهلت واعمل بما علمت »[1] . وعن ابن شهاب « العلم خزانة مفاتحها المسألة »[2] ونظراً لأهمية هذا الأدب يستطيع الباحث أن يستنبط منه الامور التربوية التالية :

أ ـ موقف المربي من أسئلة الطلاب :

يرى ابن عبد البر ومن نقل عنهم من علماء السلف أن العالم يجب أن يتّسم بالسمات السلوكية التالية إزاء أسئلة الطلاب :

١ ـ أن يعترف بالجهل إذا سئل عن مسألة وهو لا يعرفها . وقد عقد ابن عبد البر باباً حول هذا الموضوع بعنوان : (باب : مايلزم العالم إذا سئل عما لا يدريه من وجوه العلم)[3] بدأه بحديث عن ابن عمر قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أي البقاع خير ؟ قال : لا أدري . فقال : أي البقاع شر ؟ فقال : لا أدري . قال سل ربك » وساق الحديث مطولاً ، خلاصته : أنه سأل جبريل فقال : لا أدري ... فسأل جبريل ربه فقال : « فأخبرهُ أن خير البقاع المساجد وأن شر البقاع الاسواق »[4] فكان الرسول ﷺ قدوة المربين في أن يقولوا (لا أدري) حين يجهلون .

(١و٢) جامع بيان العلم ٨٧/١

(٣و٤) جامع بيان العلم ٤٩/٢ ـ ٥٠

٢ ـ ألاّ يسرع في الإجابة قبل أن يفهم السؤال جيداً . قال ابن عبد البر : « أوصى يحيى بن خالد ابنه جعفراً فقال : لاتردّ على أحد جواباً حتى تفهم كلامه فإن ذلك يصرفك عن جواب كلامه إلى غيره . ويؤكد الجهل عليك . ولكن افهم عنه ، فإذا فهمته فأجبه ، ولا تعجل بالجواب قبل الاستفهام ، ولا تستح أن تستفهم إذا لم تفهم . فإن الجواب قبل الفهم حمق »[1] .

٣ ـ ألاّ يجزع ولا يتبرّم بكثرة الأسئلة وتفريعها ، كما نقل ابن عبد البر عن الخليل قوله : « ولا تجزع من تفريع السؤال »[2] .

وهكذا يجب على المربي أن يوسع صدره لأسئلة الطلاب ويجتهد في الجواب عنها ، بما يفيدهم ويناسب حالهم ، ومستواهم .

ب ـ الفوائد والدلالة التربوية لأسئلة الطلاب :

عُني علماؤنا ببيان فوائد الأسئلة ويمكن للباحث أن يستنبط من كتاباتهم الفوائد التالية :

١ ـ يعتبر بعضهم أسئلة الطلاب وسيلة جيدة لتذكير العالم

---

(١) جامع بيان العلم ١٤٨/١

(٢) جامع بيان العلم ٩٠/١ . بلفظ « وروينا عن الخليل .. » وسيأتي تمام هذه العبارة .

بعلمه ، فإذا لم يُسأل ، ولم يدرّس نسي وضاع علمه كما نقل ابن عبد البر عن علي بن حوشب قال : سمعت مكحولاً يقول : « قدمت دمشق وما أنا بشيء من العلم أعلم مني بكذا (لِباب ذكره من أبواب العلم) قال : فأمسك أهلها عن مسألتي ، فذهب »[1] أي فذهب من ذاكرته ذلك الباب الذي لم يكن بشيء من العلم أعلم منه به .

٢ ـ والأسئلة تفتح للعالم أبواباً جديدة من العلم : كما يلاحظ من قول الخليل السابق « ولا تجزع من تفريع السؤال فإنه ينبهك على علم مالم تعلم »[2] وكذلك أسئلة الطلاب بعد الدرس قد تذكر المربي بما نسيه أو تجاوزه أو قصر في شرحه أثناء الدرس .

٣ ـ السؤال عن العلم يشفي السائل من قلق الجهل ويروي عنده غريزة حب الاطلاع ، ويشجعه إن كان عنده خوف أو حبسة أو عيّ ، وإذا كانت (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)[3] فإن كل هذه الفوائد مجموعة في قوله ﷺ : « شفاء العيّ السؤال »[4] لذلك

---

(١) جامع بيان العلم ٨٩/١ . بلفظ (ورُوي عن علي بن حوشب ..) .

(٢) جامع بيان العلم ٩٠/١

(٣) هذه قاعدة من قواعد علم أصول الفقه . وهو مجموعة قواعد منهجية تبيّن منهج البحث الفقهي وأساليب استنباط الحقائق الفقهية من القرآن والسنة والإجماع ...

(٤) سبق تخريج الحديث والإشارة إلى موضعه عند ابن عبد البر .

عقب ابن عبد البر على هذا الحديث بقوله : « وأنشدت لبعض المتقدمين :

إذا كنت في بلد جاهلاً ... وللعلم ملتمساً فاسأل
فإن السؤال شفاء العمى ... كما قيل في المثل الأول »[1]

٤ ـ الوصول إلى الحق ومعرفة الوجه الصحيح للعبادة أو المعاملة ، أو أي أمر من أمور الدين ، إرضاءً لرب العالمين . ولذلك مدحت السيدة عائشة أم المؤمنين نساء الأنصار[2] وقال أم سليم : « يارسول الله إن الله لا يستحي من الحق هل على المرأة من غسل ؟ »[3] .

أما أسئلة العالم لطلابه فسيأتي بحثها مع (الأساليب التربوية عند ابن عبد البر) إن شاء الله .

الأدب الثامن :

وهو من الأبحاث التربوية التي انفرد بها أسلافنا ، وأكثروا

---

(١) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ٨٨/١ وقد أورد العديد من الشعر حول هذا المعنى .

(٢و٣) جامع بيان العلم ٨٧
وأم سليم هي الرميصاء بنت ملحان ، صحابية جليلة ، ووالدة الصحابي أنس بن مالك ، روت عن رسول الله ﷺ عدة أحاديث .

البحث فيهـا ، وهو **تحمل المشـاق والصبر على الفقر وشظف العيش ،** في سبيل طلب العلم .

وقد نقل لنـا ابن عبـد البر في هـذا المعنى بسنـده عن ابن القـاسم قال :

« كان مالك يقول : إن هذا الأمر لن ينال حتى يـذاق فيـه طعم الفقر ، وذكر ما نزل بربيعـة من الفقر في طلب العلم حتى بـاع خشب سقف بيتـه ، في طلب العلم ، وحتى كان يـأكل مـا يلقى على مـزابـل المـدينـة من الـزبيب وعصـارة التمر »[1] ونقـل عن إبراهيم بن الجراح قال : سمعت أبا يوسف يقول : « لقد طلبنا هذا العلم ، وطلبـه معنـا من لانحصيه كثرة ، فما انتفع به منا إلا من دبغ اللبن قلبه . وذلـك أن أبا العباس لما أفضى إليه الأمر بعث إلى المدينة ، فأقدم إليه عـامـة من كان فيها من أهل العلم ، فكان أهلنـا يعـدّون لنـا خبزاً يلطّخونـه لنـا باللبن ، فنغدو في طلب العلم ، ثم نرجع إلى ذلك فنـأكلـه ، فـأمـا من كان ينتظر أن تصنع له هريسـة ، أو عصيـدة ، فكان ذلـك يشغلـه ، حتى يفوته كل ماكنا نحن نـدركـه »[2] . قـال أبو عمر ابن عبـد البر : « وقال أبو بكر بن اللباذ : قال لنـا زيـدان ، سمعت سحنون يقول :

(١ ـ ٢)جامع بيان العلم ، مرجع سابق ٩٧/١

لا يصلح العلم لمن يـأكل حتى يشبـع ، ولا لمن يهتم بغسـل ثـوبـه »[1] .
ونقل عن الشـافعي قـولـه : « لا يطلب هـذا العلم أحـد بـالمـال وعـزة النفس فيفلح ، ولكن من طلبـه بـذلّـة النفس وضيـق العيش وحرمـة العلم أفلـح »[2] وقـولــه : « كنت يتيمـاً في حجر أمي ، فــدفعتني في الكتّاب ، ولم يكن عندها ماتعطي المعلم ، وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفـه إذا قـام . فلمـا ختمت القرآن دخلت المسجـد ، فكنت أجـالس العلماء وكنت أسمع الحديث أو المسألة ، فأحفظها ، ولم يكن عند أمي ماتعطيني أشتري بـه قراطيس ، فكنت إذا رأيت عظماً يلوح ، آخـذه فأكتب فيه ، فإذا امتلأ طرحتـه في جرّة كانت لنـا قـديمـاً ، قـال ، ثم قـدم والٍ على اليمن ، فكلمـه لي بعض القرشيين أن أصحبـه ، ولم يكن عند أمي ماتعطيني أتجمّل به ، فرهنت رداءها بستة عشر ديناراً ... ، فأعطتني ، فتجمّلت بها معه ، فلمـا قـدمنـا اليمن استعملني على عمل ، فحُمِدتُ فيه ، فزادني عملاً فحمدت فيه ...

وقدم العُمّار (أي المعتمرون) مكة في رجب فـأثنوا علي ، فطـار لي بذلك ذكر فقدمت من اليمن .. »[3] ، ثم ذكر أنـه لقي ابن أبي يحي فوبخه على ترك العلم والاهتام بالدنيا ...

(١و٢و٣) جامع بيان العلم ٩٨/١

ولقي سفيان بن عيينه فرحب به ووعظه في ذلك . فكانت موعظة سفيان أبلغ في نفسه إذ قال له : « بلغنا ولايتك فيما انتشر عنك ، وما أديت كل الذي لله عليك ، ولا تعُدْ »[1] فأطاعه وعاد إلى طلب العلم ، ولم يعد إلى الولاية ، وهكذا كان كبار العلماء مثل سفيان بن عيينة يخافون على النابغين من طلاب العلم كالشافعي ، أن يمعنوا في طلب المناصب والولاية فيمنعهم الغنى من الاستمرار في طلب العلم ، لاعتقادهم بأن الغنى والاستمرار في طلب العلم لايجتمعان ، أو لا يدومان .

وهذا التفاني في طلب العلم والرحلة في سبيل معرفة الحقائق العلمية كان في تاريخنا أعظم مما عليه معظم رواد المناطق القطبية من العلماء في عصرنا ، لأن هؤلاء لا يبتغون شهرة علمية وذكراً تاريخياً بين الناس ، يخلّد أسماءهم ، أما أسلافنا فكان شقاؤهم في طلب العلم ، في سبيل مرضاة الله ، ومعرفة الحق والعمل به ، فكان الإخلاص والبعد عن الرياء والشهرة ، من أهم المبادئ التربوية التي رُبّوا عليها ، ورَبَّوا من بعدهم[2] ...

---

(١) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ٩٨/١

(٢) سبق شرح هذا المبدأ التربوي . وسفيان بن عيينة سبقت ترجمته ص ٧٠

الفصل الخامس

الأساليب التربوية عند ابن عبد البر

تمهيد :

لعلّ مما يوضح الأساليب التربوية عند ابن عبد البر ، للقارئ الكريم ، أن يلقي نظرة على (منـــازل العلم) ومراحلـــه ، كما كانت معروفة عند العلماء الـذين نقل عنهم ابن عبـد البر وتبنّى آراءهم التربوية وقد خصص لهذا بحثاً عنوانه : (باب منازل العلم) ذكر فيه أقوالاً لبعض كبار علماء القرون الهجرية الأولى ، عن مراحل التعلم من أدنى مراحله حتى أعلى مراتبه . وقد اختلفوا في تعدادها . فكان أكثرهم تعداداً لهذه المنازل : ابن المبارك حيث يقول : « أول العلم النية ، ثم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر »[1] . وكل من خالفه في بعض هذه المنازل فلأنه ربما أدخل مرتبة في مرتبة ، فصارت أربعاً بدلاً من ستة ، عند بعضهم ، كالإمام محمد بن

(١) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ١١٨/١

النضر الحارثي . الذي قال : « أول العلم الاستماع قيل ثم ماذا ؟ قال : الحفظ . قيل ثم ماذا ؟ قال : العمل ، قيل ثم ماذا ؟ قال النشر »[1] فقد طوى الإمام الحارثي مرحلة (الفهم) في مرحلة (الاستماع) فجعلها واحدة . لأن الفهم ثمرة الاستماع فلا فائدة من استماع بغير فهم ، وأسقط النية لأنها ليست مرحلة عملية يمكن تحديد أسلوب عملي لها بل محلها القلب ، ووافق الحارثيَّ ، سفيان الثوري إلا أنه أضاف الإنصات حيث قال : « كان يقال : أول العلم الاستماع ، ثم الإنصات ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر »[2] والإنصات أدق وأوعى من مجرد الاستماع ، وربما يقابله في علم النفس التربوي اليوم (الانتباه) . وسأحاول بسط هذه المراحل الأربعة مع الأسلوب التربوي الذي يرافق كل مرحلة ، كالمذاكرة والحفظ وقد يكون للمرحلة الواحدة عدة أساليب كمرحلة النشر ، ثم أتبعها غيرها من الأساليب .

١ ـ الاستماع :

التعلم بالاستماع أول الدرجات التي يبدؤها المتعلم . ويتعيّن هذا الأسلوب عندما يكون التعليم جماعياً في حلقات العلم الكبرى (ويسمى هذا الأسلوب في عصرنا أسلوب الإلقاء أو المحاضرة) ،

(١و٢) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ١١٨/١

فتصبح طريقة الاستماع والإنصات بالنسبة للطالب هي المفضلة ، كما نقل ابن عبد البر عن عقبة بن مسلم قوله : « الحديث مع الرجل والرجلين والثلاثة ، فإذا عظُمت الحلقة فأنصت »[1] وهذا يقتضي أن يكون العالم يلقي درسه ، والآخرون يستمعون ، فالاستماع طريقة يتبعها المتعلم غالباً عندما يتبع المعلم طريقة الإلقاء في جمع من الطلاب وقد مدح رسول الله ﷺ أسلوب التعليم الجماعي في حديث ، رواه ابن عبد البر بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما من قوم يجتمعون في بيت من بيوت الله يتعلمون القرآن ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وتنزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده »[2] وهذا الحديث وإن كان يشمل أيضاً أسلوب المدارسة « يتدارسونه » بأن يقرأ أحد طلاب الحلقة ويسمع الآخرون ويصحح بعضهم لبعض ، لكنه نص في الاستماع وحسن الإنصات لأن المدارسة لا تجدي إلا بالإنصات ، ولأن من شروط من يحضر حلقة تدارس القرآن أن ينصت ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ

---

(١) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ١٢٨/١

(٢) المرجع السابق ١٣/١ ـ ١٤ ، ورواه أبو داود بلفظ « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله .. الحديث » ، وأحمد ومسلم والترمذي انظر : صحيح الجامع الصغير ، مرجع سابق ١١٨/٥ رقم ٥٣٨٥

فَاسْتَمِعوا لَهُ وَأَنْصِتوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمونَ ﴾[1] ولأن الرحمة والسكينة تغشاهم ببركة القرآن وفضل الاستماع والإنصات إليه ...

فالاستماع والإنصات وسيلة هامة من وسائل التعلم ، وأسلوب جيّد من أساليب التعليم ، إذا روّض المعلم طلابه عليه ؛ كما هو معلوم في طرق تدريس القرآن واللغة العربية واللغات الأجنبية . وقد ارتقى هذا الأسلوب فاستعملت فيه الأساليب التكنولوجية ، في الإذاعة ، والرائي[2] ، والمعمل اللغوي ، في أيامنا ...

٢ ـ الفهم والحفظ :

تختلف وظيفة الفهم ونتائجه ، عن وظيفة الحفظ ونتائجه العلمية . فالفهم يمكن الاقتصار عليه إذا أراد المتعلم أن يكون أديباً موسوعياً يكثر من السماع والفهم والقراءة ، ليأخذ من كل شيء أحسنه ، ومن كل علم بنصيب ، وقد أفرد ابن عبد البر فصلاً لهذا المعنى نقل فيه آراء تربوية لكبار علمائنا حيث قال : « فصل[3] : قال الخليل بن أحمد : اجعل تعليمك دراسة ، واجعل مناظرة العلم تنبيهاً

---

(١) سورة الأعراف ٧/٢٠٤

(٢) للازدياد حول هذه الفكرة ، يمكن الرجوع لكتاب الفلم القرآني للأستاذ عبد الرحمن الباني . ط . المكتب الاسلامي بيروت .

(٣) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ١/١٣٠

بما ليس عندك . وأكثر من العلم لتعلم ، وأقلل منه لتحفظ[1] ..
ويقال : إذا أردت أن تكون عالماً فاقصد لفن من العلم ، وإن أردت
أن تكون أديباً فخذ من كل شيء أحسنه » .

وقال غيره : « من أراد أن يكون حافظاً نظر في فنّ واحد من
العلم ، ومن أراد أن يكون عالماً أخذ من كل علم بنصيب » .

وهكذا يتلخص من هذا الفصل أن ابن عبد البر يؤيد رأي من
يرى أن الحفظ وسيلة للتخصص في علم بعينه ، كالحديث ، والتفسير ،
والجرح والتعديل ، والتاريخ .... وأن الفهم والتوسع والاستيعاب
يعين على التأدب بالعلوم والأخذ من كل علم بنصيب ، ولم يرجح أحد
هذين الاتجاهين ، بل ذكر ما يؤيد كلاً منهما ويظهر فائدته . وترك
للقارئ أن يأخذ بالاتجاه التربوي الذي يناسبه فذكر قول أبي عبيدة
القاسم بن سلام « ما ناظرني رجل قط وكان مفتنّاً في العلوم إلا
غلبته ، ولا ناظرني رجل ذو فن واحد إلا غلبني في علمه ذلك »[2]
وهذا يؤيد التخصص ، ثم ذكر قول يحي بن خالد بن برمك[3]
لابنه : « يا بني خذ من كل علم بحظ وافر ، فإنك إن لم تفعل جهلت ،

(١و٢) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ١٣٠/١

(٣) يحي بن خالد البرمكي وزير هارون الرشيد ، توفي في سجنه في الثالث من محرم سنة ١٩٠ هـ .

وإن جهلت شيئاً من العلم عاديته ، وعزيز عليّ أن تعادي شيئاً من العلم[1] » .

وهذا يؤيد الأسلوب الموسوعي والإحاطة بالعلوم للتعرف عليها .

٣ ـ ومما يعين على الفهم والحفظ : المذاكرة والتكرار .

اهتم علماؤنا الأوائل بأسلوب المذاكرة ، اقتباساً من الإشارة النبويّة « يتدارسونه »[2] في حديث مطلعه « ما من قوم يجتمعون في بيت من بيوت الله يتعلمون القرآن ... »[2] ومن مظاهر هذا الاهتمام ما نقله ابن عبد البر قال « قال علي : تذاكروا هذا الحديث ، فإنكم إن لم تفعلوا يَدْرُسْ »[3] أي ينقرض . وقال الحسن : « غائلة العلم النسيان وترك المذاكرة »[4] .

وعن الزهري قال : « إنما يذهب العلم النسيان وترك المذاكرة »[5] نستنبط من هذه النقول أن ابن عبد البر يرى ، وفقاً لرأي كبار التابعين وقبلهم علي بن أبي طالب ، أن المذاكرة خير

---

(١) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ١٣٠/١

(٢) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ١٣/١ ـ ١٤ وقد نقلنا الحديث بتمامه قبل قليل .

(٣و٤و٥) المرجع السابق ١٠٨/١

وسيلة للحفظ ، وللاحتفاظ بما سبق حفظه . والمذاكرة حسب مفهومها اللغوي هي مفاعلة بين طرفين ، لذلك كان بعضهم يثني على المناظرة ، ويرى أن أقل مافيها تفتيح الذهن وتذكّر العلم ، وكان بعضهم ، إذا لم يجد من يذاكره أو يناظره من أقرانه لجأ إلى الصبيان أو المساكين أو الجواري فحدّثهم ليحفظ كما نقل ابن عبد البر « عن الأعمش أن إسماعيل بن رجاء كان يجمع صبيان الكتّاب ، يحدثهم ، لئلا ينسى حديثه »[1] .

ونقل أيضاً « أن عطاء الخراساني كان إذا لم يجد أحداً ، أتى المساكين فحدّثهم ، يريد بذلك الحفظ »[2] و « أن خالد بن يزيد بن معاوية ، كان إذا لم يجد أحداً يحدّثه ، يحدّث جواريه ثم يقول : إني لأعلم أنكن لستنّ بأهل ! يريد بذلك الحفظ »[3] .

أما التكرار فهو من وسائل الحفظ أيضاً ، لكن بعضهم كرهه في التدريس وبعضهم أمر به كما قال أبو عمر يوسف بن عبد البر « وقد كانوا يكرهون تكرير الحديث ، وكان بعضهم وهو علقمة يقول : كرروه لئلا يدرس ، ولكلّ وجه لا يدفع وبالله التوفيق »[4] قلت : وقد ثبت عن رسول الله ﷺ التكرار وعدمَه ، مراعاة لحال المستّمعين كما حقق ذلك ابن القيم في زاد المعاد .

(١و٢و٣و٤) المرجع السابق ١١١/١

وقال علي رضي الله عنه في المذاكرة : « تزاوروا وتذاكروا الحديث . فإنكم إن لم تفعلوا يدرس علمكم »[1] وكان بعضهم يرى أن من شروط المذاكرة الرفق كما حدّث ابن المبارك عن سفيان عن ابن جريج : « لم أستخرج الذي استخرجت من عطاء ، إلاّ برِفقي به »[2] ، وعن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : « تحدثوا فإن الحديث يهيج الحديث »[3] ، وقال ابن مسعود : « تذاكروا الحديث فإنه يهيج بعضه بعضاً »[4] ، وعن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : « إحياء الحديث مذاكرته[5] فقال له عبد الله بن شداد : يرحمك الله : كم من حديث أحييته في صدري كان مات » ، وقال الخليل بن أحمد : « كن على مدارسة ما في صدرك أحرص منك على مدارسة ما في كتبك[6] » وعن عبد الله بن عتبة قال : « لقد أتينا أم الدرداء فتحدثنا عندها ، فقلنا أملَلْناك ياأم الدرداء ؟ فقالت : ماأمللتموني : لقد طلبت العبادة في كل شيء فما وجدت أشفى لنفسي من مذاكرة العلم[7] ، أو قالت : من مذاكرة الفقه » .

ويدلنا ماتقدم على **أهمية أسلوب المذاكرة** في تاريخنا التربويّ : وتتجلى هذه الأهمية في أمور يمكن استنباطها مما سبق وهي :

(١-٢-٣-٤) جامع بيان العلم ١٠١/١ ، مرجع سابق .

(٥-٦-٧) المرجع السابق ١٠٢/١

أ ـ الاستعانة بالمذاكرة على الحفظ وهذا ما يتفق مع الحقائق السيكولوجية المعاصرة . فإن الانتباه يكون أشد عندما يتداول المناقشة اثنان فأكثر ، وكذلك فإن اقتران الأمور العلمية الحفظية بجوّ اجتماعي أدعى إلى رسوخها في الذاكرة ، وإلى سهولة استدعائها عندما يُحتاج إليها .

ب ـ كذلك تعين المذاكرة على استدعاء أحاديث وعلوم وأفكار أخرى إلى الذاكرة ، والحديث ذو شجون ، كما يقال ، والشيء بالشيء يذكّر وهذا ماأراده أبو سعيد بقوله السابق « تحدّثوا فإن الحديث يهيجَ الحديث » وابن مسعود بقوله الآنف « تذاكروا الحديث فإنه يهيج بعضه بعضاً » وهكذا يتوسع إطار البحث ويتنقل الباحثون من مجال إلى آخر يتجاذبون أطراف الحديث .

جـ ـ المذاكرة بين اثنين فأكثر ، تدعو إلى الذهن أحاديث وأشياء ربما طواها النسيان ، أو أصبحت وراء الشعور ، كما يرى علماء النفس ، وهذا ماعناه عبد الرحمن بن أبي ليلى بقوله « إن إحياء الحديث مذاكرته » وابن شداد عندما أجابه « يرحمك الله كم من حديث أحييته في صدري قد كان مات » .

د ـ طرد الملل ، وشفاء النفس من الوحدة والوحشة ، فالنفس قد تستوحش من الانفراد بالحفظ ، وقد تمل وتفتر الهمة . أما في جو

المذاكرة والمداولة والنقاش ، فالهمة تبقى ناهضة ، والذهن يبقى مستيقظاً ، ويستمر الشعور بالارتياح ، وتتسامى المشاعر في جو من الإخلاص ، وطلب الحق ، و تحف الملائكة ـ هؤلاء المتذاكرين الذين يطلبون العلم لوجه الله ، وابتغاء نصرة الحق وإحقاقه ، والعمل بالعلم . لذلك أجابتهم أم الدرداء رضي الله عنها : « ما أمللتموني . لقد طلبت العبادة في كل شيء ، فما وجدت أشفى لنفسي من مذاكرة العلم » .

ولقد سدّت الأساليب الحديثة للاستماع والتي ألمحنا إليها آنفاً ، الفراغ الهائل الذي سبَّبَه غياب المعلم النسبي بالمقارنة مع الازدياد الكبير في عدد المتعلمين (كأشرطة التسجيل ، والأسطوانات ، وأفلام الڤيديو العلمية ، وبرامج الحسّابات الآلية = الكومبيوتر) . ولكن كان لها جانبها السلبي ، حيث قللت من جودة الفهم والحفظ ، وكادت أن تقضي على أسلوب المذاكرة والتكرار ، الذي يمثل جانباً إنسانياً لا يمكن إغفاله ؛ إذ يقوي الوشائج البشرية ، ويفتح آفاقاً جديدة ، ويهيئ تربة صالحة لنمو الأفكار وتفتح المبتكرات ... فالتذاكر مع الإنسان حتى لو كان جارية أو مسكيناً أو صبياً[1] ، أجدى من المذاكرة والمناظرة مع آلة .

---

(١) كما لاحظت قبل هذا بصفحتين .

ـ أما (**العمل**) فقد بسطت فيه القول عند بحثي في المبدأ الثالث (العمل بالعلم) وكذلك (النشر) أوضحته في (المبدأ السابع : نشر العلم وتبليغه) فهما مبدآن وطريقتان في وقت معاً . ومنزلتان من منازل التقدّم والتوغل والرقيّ في العلم والتعليم ، بل هما من أرقى درجات العلم ، والتعليم والتربية ، فالعمل بالعلم طريقة مثلى لتهذيب السلوك وتربيته ، ولتثبيت العلم في الذاكرة وتربيتها على التذكر ، ولتربية المحاكمة العقلية ، لأن العمل بالعلم يقتضي التذكر ، ويقتضي (القياس)[1] قبل الإقدام على أي عمل هام له علاقة بما تعلم الإنسان...

٤ ـ **أما تعليم العلم ونشره** فهو وسيلة هامة لحفظه وتذكره ، بل تثبيته في الذاكرة لئلا يدرس كما نقل ابن عبد البر عن جمهور من علمائنا وحفّاظنا ، لذاك آثرنا أن نذكر في هذه الحلقة ، قبساً من أساليبهم في العمل على نشر العلم ، وضبطهم لهذه الأساليب .

الأساليب التربوية لنشر العلم :

من مظاهر رسوخ (مبدأ نشر العلم وتبليغه) في نفوس علمائنا

---

(١) يمكن تعريف القياس هنا في المجال التربوي بأنه اكتشاف المتعلم العلة التي علّق بها الحكم في النص أو الأصل من أصول الشريعة ، وانطباقها على الفرع الذي يريد معرفة حكمه ، أو العمل الذي يريد أن يعمله ، وقد بسطت القول التربوي في القياس في الحلقة الأولى من هذه السلسلة (ابن تيمية) .

اهتمامهم البالغ بالأساليب التربوية لتحقيق هذا المبدأ . وقد اقتبسوا هذا الاهتمام من هدي محمد رسول الله ﷺ حين حضّهم على (السماع) ، و (الحفظ) و (التبليغ) و (التحديث) ، فجنّد كل أبناء هذه الأمة الإسلامية لتحقيق هذه الرسالة العلمية التربوية إذ قال « نضّر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره »[(١)] . وقال « تسمعون ويسمع منكم ، ويُسمع ممن يسمع منكم »[(٢)] . فجعل رسول الله ﷺ أوّل وسائل نشر العلم : السماع ، ثم الحفظ ثم التبليغ والتحديث . ومن هنا انطلق علماؤنا في ترتيب (منازل العلم) كما رأينا آنفاً .

غير أنهم حينما توغلوا وتوسعوا في أساليب نقل الأحاديث النبوية ، وقفوا وقفة متأمل ، ليثّبتوا من هذه الأساليب ، حرصاً منهم على الأمانة والدقة العلمية ، فكان أحدهم يتحرج من الخَطأ في ذكر الأسلوب الذي نقل به الخبر ، أو التعبير عنه : هل يقول حدثني ، أم أخبرني ، أم سمعت ، أم أنبأنا ، أم يكتفي بقوله (عن فلان) إلى غير ذلك من الاصطلاحات . وكان بحثهم في تحديد هذه (المصطلحات التربوية) مفتاحاً يدلنا على أهم الأساليب التربوية الكامنة وراءها . ولعل أرقى هذه الأساليب وأدقها عندهم .

---

(١) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ٣٩/١

(٢) المرجع السابق ٤٣/١

أ ـ السماع والتحديث أو الإخبار :

ويعبر عنها الراوي بقوله (سمعت من فلان) أو (حدثني) أو (أخبرنا) أو (حدثنا) . والتصريح بالسماع أو التحديث يدل على اللقاء ودقة النقل ، والتلقي عن طريق الحواس والجوارح ، لا عن طريق الكتب والرسائل ... فلا مجال للشك والحالة هذه إذا كان الناقل ثقة حافظاً متقناً غير متحيّز ، ولا صاحب بدعة ، ولا مجال للاختلاف في التعبير عن هذا الأسلوب الراقي من أساليب تحمّل الحديث ونقله . فحرصهم على بيان مكانة الخبر المنقول بهذه الدقة والإتقان قد لا يسمح لهم بالتساهل في التعبير عنه ، أو الاكتفاء بالقول (عن فلان) بدلاً من (سمعت) أو (حدثني) ... أمّا (أخبرني) فقد نقل الاختلاف في هذا التعبير كما قال الإمام ابن عبد البر : « قال أبو جعفر : وقالت طائفة منهم : في العرض : (أخبرنا) ولا يجوز أن يقال (حدثنا) إلا فيما سمعه من لفظ الذي يحدّثه به »[1] ثم يناقش أبو جعفر هذه الطائفة في رأيها فيقول : « ولما اختلفوا ، نظرنا فيما اختلفوا فيه ، فلم نجد بين الحديث وبين الخبر فرقاً[2] في كتاب الله

---

(١) جامع بيان العلم ١٧٥/٢

(٢) في النسخة المطبوعة (في هذا) بدلاً من (فرقاً) ولا معنى لها ، بل الكلمة التي اخترناها هي التي تحقق المعنى المراد فتأمّل .

ولا في سنة رسول الله ﷺ »[1] ثم جاء بأدلة من القرآن على ما ذهب إليه ، وختمها بقوله : « وكان المراد في هذا كله أن الخبر والحديث واحد »[2] ثم جاء بأدلة من السنة أيضاً ، ولم أجد في جميع هذه الأدلة وتلك ما يؤكد أن معنى (أخبر : نقل حديثاً معيناً بلفظه سمعه من شخص معين) ، كما يريد بعض المدققين ممن ذهب إلى التفريق بين استعمال (أخبر) و (حدّث) ، وكل ما توصل إليه أن هناك ترادفاً بين هذين اللفظين في الاستعمال القرآني والنبوي . ومعلوم أن الترادف اللغوي لابد أن يكون معه بعض الفروق الدقيقة ، وأن للعلماء الحق في أن يخصصوا بعض الألفاظ بمعان اصطلاحية تهمهم في علمهم ولذلك قيل : (لا مشاحّة في الاصطلاح) .

ولهذا كلّه أراد ابن عبد البر أن يؤيد رأي أبي جعفر الطحاوي بأقوال كبار علماء الحديث ورواته من التابعين والأئمة المجتهدين كالحسن البصري ، ومنصور بن المعتمر ، وأيوب السختياني ، والزهري ، وأحمد بن حنبل ، وأحمد بن صالح[3] ، فنقل عن هؤلاء جميعاً إقراراً ، أو تصريحاً بالموافقة على أن يقرأ التلميذ على شيخه

---

(١) جامع بيان العلم ١٧٦/٢ ، وأبو جعفر هو الطحاوي كما سيأتي .

(٢) انظر المرجع السابق ١٧٧/٢

(٣) انظر المرجع السابق ١٧٧/٢

ماألّفه الشيخ ، ثم يرويه عنه ويقول : (حدثنا) وهذا ماسيُبسط مع أدلتـه فيما يلي ، ولكن يطيب لي قبـل أن أغـادر أسلـوب (السماع والتحديث) أن ألخص أن المقصود التربوي من هذا الأسلوب أن يحسن التلميذ الاستماع والإصغـاء ، ليحسن الفهم والاستيعـاب كما مرّ آنفـاً فيما نقل ابن عبـد البر من قول أنس بن أبي شيـخ : « من كان حسن الفهم رديء الاستماع لم يقم خيره بشرّه »[1] لأنـــه قـــد يخطئ في السماع فيخطئ في الفهم ، فلا يقوم الخير المرجوّ من الفهم بـالشر المتـوقَـعّ من سـوء الاستماع وغـالبـاً مـا يقع سـوء الاستماع بسبب الكبر والطعن في السن ، كما يصرح علمـاء (الجرح والتعـديـل) أي (تراجم الرواة) ، لذلك بلغت الدقة بهؤلاء العلماء حداً يفرقون معـه بين حـديث الرجل الـواحـد قبـل أن (يختلـط) ، وبعـد ذلـك ، فـإن كان قبـل (الاختلاط) ، الحادث بسبب الكبر أو غيره ، أخذوا بحـديثـه ، وإن كان بعده لم يأخذوا به ... فدلّ هـذا على أن من شروط صحـة أسلوب الاستماع والتحـديث سـلامـة الحـواس واستكمـال الـوعي ، وهـذا أمر طبيعي لأن هذا الأسلوبَ يقوم على الإدراك الحسّي بالدرجة الأولى .

وقد كان هذا الأسلوب أكثر ما كان انتشاراً في عهد الصحابـة ومن أدركهم من التـابعين ، لأن جـل اعتمادهم كان على السماع والحفـظ

---

(١) المرجع السابق ١٠٩/١

والتحديث ، ثم بقي السماع وما يزال إلى يومنا هذا ، يرافق الأساليب الأخرى ، فمازال علماء القراءات يتلقونها بالسند المتّصل ، منذ عهد الرسول ﷺ إلى هذا العصر ، ويحرصون على إتقان تلاوة القرآن تلقياً عن طريق السماع . وعلوم القراءات والتجويد أحوج إلى هذا الأسلوب السمعي ، لأن إتقان تلاوة القرآن وتجويده لا يتمّان إلا بالسماع وحسن الأداء ، والنطق السليم ، ومن جهة أخرى ، فإن تعلم اللغات الأجنبية يقوم كذلك على السماع والإخبار ، وخاصة بعض الفروع التخصصية في تلك العلوم كالصوتيات . واللسانيات[1] . lingustic

ب ـ الكتابة والعرض أو القراءة على الأستاذ :

ومن صور هذا الأسلوب التعليمي أن يقرأ الطالب على شيخه كتاباً أو صفحة مما حفظه الشيخ أو ألّفه ، أو نقله عن عالم سبقه . ثمّ يرويه الطالب بعد أن يجيزه الشيخ ، وقد أشار ابن عبد البر إلى هذا الأسلوب فيما نقله عن أبي جعفر الطحاوي وهو قوله :

« قال : وقد ذهب قوم فيما قرئ على العالم ، فأجازه وأقرّ به :

---

(١) ولعل افتقاد الحضارات العالمية (عدا الحضارة العربية الإسلامية) لتلك الدقة وذاك الإخلاص والتنظيم التربوي في نشر العلم ونقله ، كان وراء التحريف الذي طرأ على كثير من أصولها عبر التاريخ .

أن يقال فيه : (قُرئ على فلان) ، ولا يقال فيه (حدثنا) ولا (أخبرنا) قال : ولا وجه لهذا القول عندنا . وسواء عندنا : القراءة على العالم وقراءة العالم . ولكل واحد ممّن سمع بشيء من ذلك أن يقول حدثنا أو أخبرنا »[1] .

١) صور هذا الأسلوب :

من هذا الكلام يستنبط أن لهذا الأسلوب ثلاث صور :

أ ـ سماع التلميذ من الشيخ مباشرة ، والشيخ يقرأ في الكتاب .

ب ـ سماع الشيخ من التلميذ وإقرار الشيخ للتلميذ بما قرأ . فيقول التلميذ في الرواية في مثل هذه الصورة قرأت على شيخي فلان : (ثم يروي الحديث) .

جـ ـ سماع التلميذ ممّن قرأ على الشيخ وهو حاضر ، وفي هذا توسعة على طلاب العلم فقد يكون عددهم بالعشرات وكلهم يروي قائلاً (قرئ على فلان وأنا أسمع) وإلى هذا أشار أبو جعفر بقوله : « ولكلّ ممن سمع بشيء من ذلك أن يقول حدثنا أو أخبرنا » .

٢) أما تسمية هذا الأسلوب بـ (العرض) فدليله أن ابن عبد البر ترجم لهذا البحث كله بعنوان : (باب في العرض على العالم ،

---

(١) جامع بيان العلم ١٧٦/٢

وقول أخبرنا وحدثنا)[1] وأن عدداً ممن قرؤوا على الإمـام الزهري سمّو عملهم هـذا بـالعرض كما نقـل ابن عبـد البر عن « معمر قـال سمعت إبراهيم بن الوليد ـ رجلاً من بني أمية ـ يسأل الزهري ، **وعرض** عليـه كتاباً من علمه ، أحدّث بهذا عنك يـاأبـا بكر ؟ قـال : فمن يحـدثكموه غيري ؟ قـال معمر : ورأيت أيّـوب يعرض عليـه العلم فيجيزه ، قـال معمر : وكان منصور لا يرى بالعرض بأساً »[2] و « قال عبد الرزاق : عرضنا العلم وسمعنا . وكلٌّ سماع »[3] .

وللشيخ أن يختار من يقرأ له كتابـه ، حسب قنـاعتـه ؛ كما روى أبو عمر يوسف بن عبد البر بسنده عن مالك بن أنس « قال : لما قدم الزهري أخذت الكتاب لأقرأ عليـه ، فقـال : من أنت ؟ فقلت : أنـا مالك بن أنس ، وانتسبت له فقال : ضع الكتـاب . ثم أخـذ الكتـاب محمد بن إسحاق يقرأ ، وانتسب له فقـال لـه : ضع الكتـاب . ثم أخـذ الكتـاب عبيـد الله بن عمر ، وقـال : أنـا عبيـد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطـاب . فقـال : اقرأ . فجميع مـا سمع الناس يومئذ ، مما قرأ عبيد الله »[4] .

---

(١) المرجع السابق ١٧٥/٢

(٢-٣) المرجع السابق ١٧٧/٢

(٤) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ١٧٧/٢ ـ ١٧٨

وقد نقل ابن عبد البر عن مالك إقراراً صريحاً للصورة الثالثة من الصور التي ذكرتها آنفاً لهذا الأسلوب بقوله « وقال أبو الطاهر أحمد بن عمر بن الصرح ، أخبرنا ابن وهب قال : قلت لمالك : ياأبا عبد الله كيف تقول فيما **سمعناه يُقرأ عليك من هذه العلوم :** (أخبرنا) أو (حدثنا) ؟ فقال : قولوا إن شئتم حدثنا . وإن شئتم أخبرنا . فقد رأيت العلم يقرأ على ابن شهاب »[1] .

٣) منشأ هذا الأسلوب وموقف الصحابة والتابعين الأوائل منه :

يبدو لمن يتأمل تاريخ التربية الإسلامية ، أن أسلوب (العرض) أسلوب حضاري متقدم يقتضي معرفة الكتابة والقراءة ، وانتشار الكتب ، والقرطاس بين أيدي طلبة العلم . وكل ذلك كان نادراً في عهد الرسالة المحمدية والخلفاء الراشدين ، فالأمية كانت سائدة وكانت القبيلة كلها تجد في صفوفها واحداً أو اثنين ممن يتقنون القراءة ، وكان القرطاس أو الرقّ (جلد الغزال) يكاد يقتصر على الرسول ﷺ ثم على الخلفاء وكبار الولاة والقضاة ورؤساء الدواوين ونحوهم ممن كان عملهم يقتضي الحصول على وسائل الكتابة . فإن تعدّاهم فإلى كبار الأغنياء والأمراء ، فيما بعد ، في عهد الراشدين ..

---

(١) المرجع السابق ١٧٨/٢

وكانت كتابة الحديث ممنوعة في عهد النبوة أول الأمر ، ثم أباحها رسول الله ﷺ ، ولم يكن القرآن مجموعاً في مصحف واحد ثم جمع في عهد أبي بكر ، ثم في عهد عثمان وُحّدت المصاحف ووزعت في كل الأمصار فنشأة هذا الأسلوب كانت مصاحبة لنشأة التأليف ، والكتابة ، والتصنيف ، وجمع الأحاديث مكتوبة في كراسات . وقد جاء ذلك كله متأخراً فقد بقي بعض من عاش من الصحابة بعد النبي ﷺ ، يكرهون كتابة الحديث ، ويفضلون نقله عن طريق الحفظ والسماع والتحديث بما حفظوا مشافهة ، وذلك استمراراً على العمل بما سبق في أول الإسلام من منع كتابة غير القرآن كما ورد عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه »[(١)] » ... وعن المطلب بن عبد الله بن حنطب ؛ قال : « دخل زيد بن ثابت على معاوية ، فسأله عن حديث ، فأمر إنساناً أن يكتبه ، فقال له زيد : إن رسول ﷺ أمرنا ألا نكتب شيئاً من حديثه ، فمحاه » .

وكانت كراهيتهم هذه خوفاً على القرآن أن يلتبس بالحديث وأقوال الصحابة والتابعين ، كما حدث للإنجيل والتوراة ، وقد صرح

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ، مرجع سابق ٦٣/١

بـذلـك عمر بن الخطـاب حين « أراد أن يكتب السنن ، فـاستفتى أصحاب النبي ﷺ فأشاروا عليه بأن يكتبها ، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً ، ثم أصبح يوماً ، وقد عزم الله له ، فقال : إني كنت أريد أن أكتب السنن ، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً ، فأكبّوا عليها ، وتركوا كتاب الله . والله إني لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً »[١] ... « ثم كتب في الأمصار : من كان عنده شيء فليمحه »[٢] ، و « عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان ينهى عن كتابة العلم وقال : إنما ضل من كان قبلكم بالكتب »[٣] وكذلك نقل ابن عبد البر عن ابن مسعود « أن علقمة والأسود استشاراه في صحيفة فيها حديث حسن فقال : ياجارية هاتي بطشت واسكبي فيه ماءاً ، فجعل يمحوها ويقول : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾[٤] إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره »[٥] .

واستمر على ذلك عدد من التابعين يعتمدون على حفظهم دون الكتابة مثل سعيد بن عبد العزيز إذ قال : « ما كنت كتبت حديثاً

---

(١) المرجع السابق ٦٤/١

(٢و٣) المرجع السابق ٦٥/١

(٤) سورة يوسف ٣/١٢

(٥) جامع بيان العلم وفضله ، مرجع سابق ٦٦/١

قط »[1] والشعبي : « ماكتبت سواداً في بياض قط ، وما سمعت من رجل حديثاً فأردت أن يعيده علي ، ولقد نسيت من الأحاديث مالو حفظها إنسان كان بها عالماً »[2] ونقل ابن عبد البر عن منصور بن المعتمر ومغيرة والأعمش « أنهم كانوا يكرهون كتابة الحديث »[3] .

وقد بين ابن عبد البر وجهة نظره من كره كتابة العلم فقال : « قال أبو عمر : من كره كتابة العلم ، إنما كرهه لوجهين : أحدهما ألاّ يتخذ مع القرآن كتاباً يضاهى به . ولئلا يتكل الكاتب على ماكتب ، فلا يحفظ ، فيقل الحفظ ، كما قال الخليل رحمه الله :

ليس بعلم ماحوى القِمَطْرُ ماالعلم إلا ماحواه الصدرُ »[4]

٤) رأي ابن عبد البر في هذا الأسلوب

لكن ابن عبد البر لم يذهب مذهب الذين قالوا بتحريم كتابة العلم ، وهو بالتالي لم يقف موقف المجافي لأسلوب العرض والقراءة على الأستاذ ، بل عرض رأيهم هذا عرضاً تاريخياً جميلاً ، كما لخصناه عنه ، ثم حلّل نفسيتهم وظروفهم الاجتماعية ، كما يفعل المؤرخ المحقق في عصرنا هذا ، فقال مبيّناً سبب مذهبهم هذا « قال أبو عمر : من ذكرنا

(١و٢) المرجع السابق ٦٧/١

(٣) المرجع السابق ٦٧/١ ـ ٦٨

(٤) المرجع السابق ٦٨/١

قوله في هذا الباب ، فإنما ذهب في ذلك مذهب العرب ، لأنهم كانوا مطبوعين على الحفظ ، مخصوصين بذلك ، والذين كرهوا الكتاب ، كابن عباس والشعبيّ وابن شهاب والنخعيّ وقتادة ، ومن ذهب مذهبهم ، وجُبل جبلّتهم ، كانوا قد طبعوا على الحفظ ، فكان أحدهم يجتزئ بالسّمعة[1] . ألا ترى ما جاء عن ابن شهاب أنه كان يقول : « إني لأمرّ بالبقيع فأسدّ آذاني مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا فوالله ما دخل أذني شيء قط فنسيته » . وجاء عن الشعبي نحوه . وهؤلاء كلهم عرب ، وقال النبي ﷺ : « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » ، وهذا مشهور أن العرب قد خصّت بالحفظ . كان أحدهم يحفظ أشعار بعض في سَمعة واحدة .... »[2] .

ثم قال مبيناً ضرورة متابعة التطور التاريخي للمجتمعات مع موافقة ما رخّصه الرسول ﷺ في كتابة العلم ، وقراءته بالتالي على المشايخ : « وليس أحد اليوم على هذا ، ولولا الكتاب لضاع كثير من العلم ، وقد أرخص رسول الله ﷺ في كتاب[3] العلم ، ورخص فيه

---

(١) بفتح السين أي يكتفي بالسماع مرة واحدة (على وزن رَكعة وسَجدة) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ، مرجع سابق ٦٩/١ ، وأبو عمر : هو يوسف بن عبد البر

(٣) هو مصدر على وزن (دفاع) بمعنى كتابة .

جماعة من العلماء وحمدوا ذلك ... »[1] ثم أورد آراء القائلين بكتابة العلم .

٥) ميزات أسلوب الكتابة والعرض

من خلال استعراض آراء المؤيدين لأسلوب الكتابة والعرض يمكننا أن نستنبط بعض ميزات هذا الأسلوب التربوي الذي بدأ منذ عهد الرسول ﷺ وما زال يتسع وينتشر حتى عصرنا هذا ، وأهمها :

أولاً ـ ضمان نقل العلم عبر المسافات إلى الأقطار النائية . فقد أسلم منذ عهد الرسول ﷺ ناس من اليمن ونجران والشام فكان بعضهم يريد نقل العلم إلى قومه في بلدته النائية ، وهو لا يحفظ فرخص له رسول الله ﷺ ، بل أمر الصحابة أن يكتبوا له ؛ كما روى ابن عبد البر بسنده عن أبي هريرة قال : « لما فتحت مكة قام رسول الله ﷺ ، فذكر الخطبة ، خطبة النبي ﷺ ، قال : فقام رجل من اليمن ، يقال له أبو شاة ، فقال : يا رسول الله : اكتبوا لي ، فقال ﷺ اكتبوا لأبي شاة . يعني الخطبة » .

ثانياً ـ استكمال النصوص العلمية وضمان سلامتها من النقص أو التغيير بسبب النسيان وفي هذا يقول ابن عبد البر : « وقد دخل على

---

(١) المرجع السابق ٢/٧٠

إبراهيم النخعيّ شيء في حفظه لتركه الكتاب ، وذكر الحلواني قال : حدثنا معاوية بن هشام وقبيصة قالا حدثنا سفين عن منصور قال : كان إبراهيم يحذف الحديث ، فقلت له إن سالم بن أبي الجعد يتم الحديث قال له : إن سالماً يكتب ، وأنا لم أكتب . قال أبو عمر فهذا النخعي مع كراهيته لكتاب الحديث ، قد أقر بفضل الكتاب »[1] وكان أنس يقول لبنيه : « قيّدوا العلم بالكتاب »[2] أي لئلا يفرّ من الذهن بسبب النسيان ، وذكر ابن عبد البر كثيراً من أقوال التابعين في هذا .

ثالثاً ـ الإكثار من العلم وحفظ أكبر قدر من التراث :

مهما استوعبت الذاكرة فإن استيعاب الكتب أبقى وأوعى وأغزر فأبو هريرة الذي يعد من أكثر الصحابة رواية وحفظاً لحديث رسول الله ﷺ يعترف بهذه الميزة لغيره فيقول : « لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص ، فإنه كتب ولم أكتب »[3] .

وكان بعض الصحابة يحبّ أن يكتب كل ما يسمع من

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ، مرجع سابق ٧٠/٢

(٢) المرجع السابق ٧٣/٢ وروي مرفوعاً ٧٢

(٣) المرجع السابق ٧٠/٢

رسول الله ﷺ كما نقل ابن عبد البر بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « قلت يارسول الله أكتب كل ماأسمع منك ؟ قال نعم . قلت : في الرضا والغضب ؟ قال : نعم فإنّي لاأقول في ذلك كله إلا حقاً »[1] ولكن هذه الميزة لم يظهر أثرها في عهد الرسالة فقد كان ماكتب في عهد الرسول ، سوى القرآن ، لا يتعدّى صحائف معدودات تساوي أصابع اليدين من الكتب التي كتبها بعض الصحابة . مع أن الرسول ﷺ رخّص في الكتابة لكن معظم الصحابة كانوا مشغولين أكثر ماكانوا في حفظ القرآن وكتابته . فكتابة الحديث ثم الفقه والأصول والتفسير والتاريخ إنما بدأ يكثر منذ القرن الثاني والثالث للهجرة ، وبه ازدهر أسلوب العرض والقراءة على الشيخ أو المعلم أو المربي ، وبه توضحت وتأسّست هذه العلوم الإسلامية وغيرها ، ولم تكن قبل التأليف والكتابة والتصنيف علوماً مرتبة مبوّبة مجموعة كما نراها اليوم ..

جـ ـ الإجازة والمناولة

وهي أن يدفع العالم المربّي إلى الطالب المتعلم كتاباً أو صحيفة فيقول له : (اروها عني) ولها شروط ستَراها في كلام ابن عبد البر ، ومثالها ما رواه ابن عبد البر بسنده عن عبيد الله بن عمر قال :

---

(١) المرجع السابق ٢/٧٠ ـ ٧١

« كنت أرى الزهريّ يأتيه الرجل بالكتاب[1] ، لم يقرأه عليه ، ولم يقرأ عليه ، فيقال له : أرويه عنك ؟ قال نعم ! »[2] ثم علق ابن عبد البر مبيناً شروط المناولة بقوله : « قال أبو عمر : هذا معناه أنه كان يعرف الكتاب بعينه ، ويعرف ثقة صاحبه ويعرف أنه من حديثه . وهذه هي المناولة ، وفي معناها الإجازة ، إذا صح تناول ذلك »[3] فاشترط (أبو عمر) ابن عبد البر ، شروطاً للإجازة والمناولة نلخصها بما يلي :

أ ـ أن يعرف المجيز الكتاب الذي أجاز التحديث به عنه ويتأكد منه بعينه .

ب ـ وأن يُتأكد من ثقة المجاز ، أي إتقانه وحفظه وعلمه وورعه وسائر شروط الراوي .

جـ ـ وأن يكون الكتاب المنقول بالإجازة أو المناولة من حديث الشيخ المنقول عنه . ويعبر عن ذلك بقوله (عن فلان) أو (قال

---

(١) المقصود بالكتاب هنا أي كراس أو مجموعة أوراق كتبت عليها أحاديث وليس بالمعنى الذي نعرفه فقد رأينا في ترجمة الزهريّ أنه لم يؤلف كتاباً بالمعنى العلمي المعروف .

(٢) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ١٧٨/٢

(٣) المرجع السابق ١٧٨/٢ ، ويعني بأبي عمر نفسه .

فلان) يعني الشيخ الذي أجازه فقد نهى الأوزاعيّ عمرو بن أبي سلمة أن يقول في المناولة حدثنا أو أخبرنا وأمره أن يقول عن أبي عمرو[1] ، لذلك رأينا عمرو بن أبي سلمة يتحرى الدقة في الرواية ليفرق بين ما رواه مناولة وما رواه سماعاً ، كما ذكر عنه ابن عبد البر بسنده : « حدثنا أحمد بن صالح قال : كان عمرو بن أبي سلمة حسن المذهب ، كان عنده شيء سمعه من الأوزاعي ، وشيء أجازه له فكان يقول فيما سمع (حدثنا الأوزاعي) ويقول فيما أجازه (قال الأوزاعي)[2] » .

ويعود ابن عبد البر ليؤكد رأيه السابق في التحفظ من هذا الأسلوب واشتراط الشروط لصحته فيقول معلقاً على ما نقل من آراء العلماء في أسلوب الإجازة « قال أبو عمر : الآثار في هذا الباب كثيرة ، على نحو ما ذكرنا . فرأيت الاقتصار أولى من الإكثار . واختلف العلماء في الإجازة ، فأجازها قوم ، وكرهها آخرون ، وفيما ذكرنا في هذا الباب دليل على جوازها ، إذا كان الشيء الذي أجيز معيّناً ، أو معلوماً محفوظاً مضبوطاً ، وكان الذي يتناوله عالماً بطرق هذا الشأن . وإن لم يكن ذلك على ما وصفت لم يؤمن أن يحدّث الذي أجيز عن الشيخ بما ليس من حديثه ، أو ينقص من إسناده الرجل

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٨ ـ ١٧٩

(٢) جامع بيان العلم وفضله ، مرجع سابق ١٧٩/٢

والرجلين من أول إسناد الديوان . فقد رأيت قوماً وقعوا في مثل هذا . وما أظن الذين كرهوا الإجازة إلا لهذا »[1] ثم يلخص هذا التحفظ بقوله : « قال أبو عمر : تلخيص هذا الباب أن الإجازة لا تجوز إلا لماهر بالصناعة ، حاذق بها ، يعرف كيف يتناولها . ويكون في شيء معيّن معروف لا يُشْكِل إسناده فهذا هو الصحيح من القول في ذلك . والله أعلم »[2] .

فهو يشترط في الراوي بأسلوب الإجازة والمناولة أن يكون حاذقاً ماهراً بصناعة العلم الذي أجيز فيه وبأساليبه ودقائقه . وأن تكون إجازته في شيء معيّن معلوم محدود من هذا العلم لا إشكال فيه . ومعنى هذا أن المجاز يمر بفترة من التعلم والقراءة على الشيخ ، ثم يختبره الشيخ ، فإن اطمأن إليه أجازه ، وقد انتقل أسلوب (الإجازة) إلى أوربا فأصبح اللفظ يطلق على شهادة علمية ترجم اسمها حرفياً عن لفظ (إجازة ـ Licence ـ ليسانس) وأصبحت لقباً علمياً يطلق على من يحق له أن يدرّس علماً من العلوم ، أو على من أتقن هذا العلم فيقال (مجاز في الآداب) أو (في العلوم) أو (في الفلك) . إلخ ...

فكان علماؤنا أول من حدد شروط الشهادة العلمية وجعلها تأخذ

---

(١) المرجع السابق ١٧٩/٢

(٢) المرجع السابق ١٨٠/٢

شكلهـا الأكاديمي المعروف اليـوم ، وكان من هـذه الشروط في أول عهدها ما رأينا آنفاً ، مما اشترط ابن عبـد البر ، رحمـه الله وجزاه عن الأمة خيراً .

فالإجازة في تاريخ التربية الإسلامية : أسلوب تعليمي لنقل العلم ونشره ، وأسلوب أكاديمي لتقويم طلاب العلم وتقـدير جهودهم العلميـة بـالشهـادة التي يستحقـونهـا ، والتي تبيـح لهم تـدريس العلم ونشره ، ولهذه الشهادة صور ونصوص نقلت عن بعض علمائنا أجازوا بهـا بعض طلابهم ، قد نأتي على ذكرها في حلقة مقبلة من هذه السلسلة إن شـاء الله .

يتلخص مما سبق أن علماءنا اتبعوا لنشر العلم ونقلـه عبر الأجيـال أسـاليب عـدة منهـا السماع والتحـديث والكتـابـة والعرض والإجـازة والمنـاولـة . وأن بعض هـذه الأسـاليب يعتمـد على الـذاكرة والحفـظ كالأسلوب الأول : (السماع والتحديث) وبعضها يعتمـد على التـأليف والتصنيف (كالكتابة والعرض) و (كالإجازة والمناولة) .

ولكل من هذه الأساليب شروطه وصفاتـه المعروفـة المبسوطـة في كتب (مصطلح الحـديث) وهي الكتب التي تحوي المنـاهـج العلميـة المتبعة في نقل الحديث ونقد أسـانيـده ومثلهـا كتب الجرح والتعـديل وتراجم الرجال وغيرها مما لا يسعنا هنا بسطه .

غير أننا اقتصرنا هنا على نبـذة من هـذه الأسـاليب التربويـة مما وجدنا عند الإمام ابن عبد البر لأنه موضوع رسالتنا هذه .

ومن أراد التوسع في تلك الكتب المنهجية وجد كنوزاً لاتفنى ، ومعينـاً لا ينضب من منـاهـج التـاريـخ ، ومن الأسـاليب العلميـة والأصول والمصطلحات التربوية ...

٥ ـ التعليم بـأسلوب السـؤال والجـواب : بعـد استكمـال أساليب نشر العلم نتابع ذكر ماوجدنا عند ابن عبد البر من الأسـاليب العامة التي تشد انتباه الطالب إلى معلمه ، ومنها :

أن يسأل المعلم عن الأمر الذي يريد تعليمه . فإذا عجز الطـالب أو أجاب بغير ما يريـد أن يعلّمـه صحح لـه وأعطـاه العلم عن طريق الجواب ، وقد سمي هذا الأسلوب في عصرنا (أسلوب الحوار) .

وأول مـا سُنّ هـذا الأسلوب عن طريـق الحـوار القرآني فكثير من أمور العقيـدة قررهـا القرآن بعـد أن سـأل عنهـا أو حكى سؤالـه عنهـا وجـواب المشركين : ﴿ وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَـقَ السَّمَـواتِ وَالأَرْضَ لَيَقـولُنّ اللهُ ﴾[1] ، ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مـا تُمْنـونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقـونَـهُ أَمْ نَحْنُ

---

(١) سورة لقمان ٢٥/٣١

الْخـالِقـون ﴾[1] وحكى لنـا القرآن حـوار أهـل الجنـة ، وتخـاصم أهـل النار ، وحوار الأنبيـاء مع المشركين ، حتى بلغت أشكال الحوار القرآني وأصنافه زهاء عشرة ، ليس هنا موضع بسطها[2] .

أما أسـاليب الحوار فقـد عرض ابن عبـد البر منهـا أنواعـاً قليلـة لاتناهز أصابع اليد صنفتها كما يلي ؛ مع فوائدها وصورها وقد خصص لها ابن عبد البر (باب طرح العالم المسألة على المتعلم)[3] وأهمها :

أ ـ الحوار للمباسطة وجلب الانتباه تمهيداً لحسن التلقّي والفهم

والقصد من طرح السؤال هنا جلب الانتباه ، واستعداد الطـالب للفهم وتلقّي العلم ؛ وقـد كرر السؤال رَسولُ الله ﷺ ، لمعـاذ ، ثلاث مرات ليزيـد من شـوقـه ، كما روى ابن عبـد البر « عن قتـادة قـال : حـدثنـا أنس بن مـالـك ان النبي ﷺ كان في سفر ومعـه معـاذ بن جبل رديفـه على الرحـل فقـال : يـامعـاذ قـال لبيـك يـا رسـول الله وسعديك ، ثلاثاً ، قال : مامن أحد يشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمـداً رسـول الله صـادقـاً من قلبـه إلا حرم الله عليـه النـار . قلت : يارسول الله ألا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال إذن يتكلوا » وأخبر

---

(١) سورة الواقعة ٥٦/٥٨ ـ ٥٩

(٢) بسطنا (الحوار القرآني) في كتاب (أصول التربية الإسلامية وأساليبها) .

(٣) جامع بيان العلم (مرجع سابق) ١/١١٩

بها معاذ عند موته »[1] ، ومن ذلك أيضاً ما رواه ابن عبد البر عن النعمان بن مرة أن رسول الله ﷺ قال : « ما ترون في الشارب والسارق والزاني ؟ وذلك قبل أن ينزل فيهم ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هن فواحش ، وفيهنّ عقوبة ، وأسوأ السرقة الذي يسرق صلاته . قالوا يا رسول الله وكيف يسرق صلاته ؟ قال لا يتم ركوعها ولا سجودها »[2] وفي هذا الحوار مهد رسول الله ﷺ لمعنى جديد من معاني السرقة ، لم يكن مألوفاً . وقد اتبع بعض التابعين رسول الله ﷺ على هذا الأسلوب التربوي كما نقل ابن عبد البر « عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : ماترون في رجل يقع بامرأته وهو محرم ؟ فلم يقل له القوم شيئاً . فقال سعيد إن رجلاً وقع بامرأته وهو محرم .. وذكر الحديث »[3] ، وهكذا هيأ سعيد بن المسيب عقول طلابه بالسؤال ، لمعرفة ـ حكم فقهي ، فلما سكتوا عن الجواب علمهم وهم في شوق إلى التعليم .

ب ـ أسئلة التطبيق واختبار التحصيل والذكاء

هذه الصورة من أسلوب الحوار ترمي إلى اختبار مدى الربط بين مدركات المسؤول وبين ماتعلمه ، فما يدركه الصحابة ويرونه أنواع

---

(١) المرجع السابق ١١٣/١

(٢و٣) جامع بيان العلم ١٢٠/١

الشجر من حولهم وفي البوادي لذلك سألهم رسول الله ﷺ بقوله : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل الرجل المسلم حدثوني ما هي ؟ قال عبد الله : فوقع الناس في شجر البوادي ، ووقع في نفسي أنها النخلة . قال : فاستحييت . فقالوا يا رسول الله ما هي ؟ قال : هي النخلة »[1] .

وقد كان سعيد بن المسيب يستخدم هذا النوع من الأسئلة كما روى عنه ابن عبد البر « أنه قال : ما صلاة يجلس في كل ركعة منها .. ؟ ثم قال سعيد هي المغرب إذا فاتتك منها ركعة »[2] وعن يحي بن سعيد « أن سعيد بن المسيب قال : ما ترون فيمن غلب عليه الدم من رعافٍ فلم ينقطع عنه ؟ قال يحي بن سعيد : ثم قال سعيد : أرى أن يومئ برأسه إيماءً »[3] .

جـ - تشجيع الطلاب على السؤال ، والتعليم عن طريق إجابة السائل وحل مشكلته

رأينا من آثار مبدأ وجوب التعليم حرص علماء السلف على أن يسألهم طلابهم . وتفننهم في إغرائهم بالسؤال عن العلم .

---

(١) المرجع السابق ١١٩/١

(٢و٣) المرجع السابق ١٢٠/١

والتعليم عن طريق إجابة السائلين وحل المشكلات التي يسألون عنها ، أمرٌ أشار إليه القرآن الكريم في عدد من التشريعات مثل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فيهما إِثْمٌ كبيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَاسِ ﴾[1] ، ﴿ يَسْأَلُونَكَ ماذا أُحِلَّ لَهُمْ ﴾[2] ، إلخ ... إلخ ... وتقام الندوات في عصرنا تحقيقاً لهذا الأسلوب التربوي ، لما فيه من النشاط والتشويق إلى الفهم ، والمتعة - وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه : « طلب من الصحابة أن يسألوه ، فهابوه أن يسألوه فجاءه رجل فجلس عند ركبتيه فسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وموعد قيام الساعة وأشراطها ، وأجابه رسول الله ﷺ عن ذلك كله . ثم قال : هذا جبريل أراد أن تعلّموا إذ لم تسألوا »[3] فهذا أسلوب السؤال أقره الرسول ﷺ بل رغب الصحابة ليسألوا فلما لم يسألوا أرسل الله جبريل ليسأل ، ولنستنبط منه هذا التشريع التربوي (التعليم عن طريق أسئلة طلاب العلم) وقد اتبع كثير من الصحابة وكبار التابعين هذا الأسلوب ، نقل ذلك عنهم ابن عبد البر، كقول علي بن أبي

---

(١) سورة البقرة ٢١٩/٢

(٢) سورة المائدة ٤/٥

(٣) صحيح الإمام مسلم ٣٠/١ (دار الطباعة العامرة استانبول ١٣٣٩ هـ) وقد لخصنا الحديث هنا بالمعنى ، وبسطنا القول فيه في (أصول التربية الإسلامية وأساليبها) ط دار الفكر بدمشق ٢٢٨

طالب : « ألا رجل يسأل فينتفع وينفع جلساءه »[1] وقوله : « من أشكل عليه شيء فليسألني عنه »[2] ، وقول ابن عباس لسعيد بن جبير : « ألا تسألني عن آية فيها مئة آية »[3] فسأله فألقى عليه درساً في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتوناً ﴾[4] ، فالحوار في هذا الشكل يبدأ بسؤال طالب العلم ، يليه جواب المعلم ، وقد يستمرّان بالسؤال والجواب ، وطلاب العلم الآخرون يستمعون ويتعلمون بلهفة وشوق .

د ـ صور التعليم عن طريق أسئلة الطلاب

يبدو مما سبق أن لهذا الأسلوب صوراً ، فقد لاحظنا أن تحريض الطلاب على السؤال يكون :

١ ـ بالعرض كما رأينا في أسلوب علي بن أبي طالب ، يعرض عليهم أن يسألوه .

٢ ـ وقد يكون بالتحدّي والاستفهام الإنكاري كقول عكرمة : « مالكم لاتسألوننا أأفلستم ؟ »[5] .

---

(١) جامع بيان العلم ١١٤/١

(٢و٣) جامع بيان العلم ١١٥/١

(٤) سورة طه ٤٠/٢٠

(٥) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ١١٦/١

٣ ـ وقد يكون بالتشويق كالتلميح إلى أمر عجيب ليرغّب الأستاذ طلابه بالسؤال عنه كما رأينا في قول ابن عباس لسعيد بن جبير : « ألا تسألني عن آية فيها مئة آية » .

٤ ـ وقد يكون بتحويل سؤال مطروح على الأستاذ ، إلى بعض الطلبة النابغين كما روى ابن عبد البر « عن حجاج بن عمرو بن غزيّة أنه كان جالساً عند زيد بن ثابت ، فجاءه ابن فهد رجل من اليمن ، فقال ياأبا سعيد إن عندي جواري ... ليس كلهنّ يعجبني أن تحمل مني أفأعزل ؟ فقال : أفته ياحجاج ، قال : قلت غفر الله لك إنما نجلس إليك لنتعلم . فقال أفته . قال : قلت : هو حرثك إن شئت سقيته ، وإن شئت عطّشته . وكنت أسمع ذلك من زيد بن ثابت فقال زيد : صدق »[1] .

هـ ـ فوائد الحوار :

(١) من فوائد أسلوب الحوار والسؤال بصورة عامة أن يكشف عن مدى علم السائل وفهمه « قال ابن عباس : ماسألني رجل عن مسألة إلا عرفت أفقيه هو أو غير فقيه »[2] وهذا من أحدث ماتوصل إليه علم طرق التدريس في عصرنا .

---

(١) المرجع السابق ١٢١/١

(٢) المرجع السابق ١١٥/١

(٢) جلب انتباه الجالسين مما يسبب لهم المنفعة العلمية واقتباس الفوائد الفقهية كما يؤخذ من قول علي رضي الله عنه : « ألا رجل يسأل فينتفع وينفع جلساءه ؟ »[١] وعلى هذا بني هذا الأسلوب التعليمي وتفننوا في أشكاله المعاصرة فأقيمت الندوات .

(٣) اختبار مدى استفادة الطلاب من خبراتهم ومعلوماتهم السابقة ، كما رأينا في سؤال الرسول ﷺ عن شجرة لا يسقط ورقها وهي مثل الرجل المسلم . وفيما اقتدى به زيد بن ثابت عندما حوّل سؤال المستفتي من اليمن إلى أحد طلابه ...

(٤) تمكين العلم في نفس المعلم ونموّه وزيادة خبرات المعلم في التفريع والتطبيق .

ومن أمتع ما قيل في هذا قول الخليل : « إن لم تعلّم الناس ثواباً فعلمهم لِتَدْرُسَ بتعلمك علمك . ولا تجزع من تفريع السؤال ، فإنه ينبهك على علم مالم تعلم »[٢] .

وينطبق هذا على طرق التدريس في عصرنا من وجه آخر ، وهو

(١) المرجع السابق ١/١١٤

(٢) جامع بيان العلم وفضله ، مرجع سابق ١/٩٠ ، والخليل هو : أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي النحوي اللغوي ، أول من استخرج العروض ، وكان شاعراً مقلاً ، وزاهداً توفي في البصرة عام ١٧٠ هـ .

أن أسئلـة بعض الطلاب النـابهين قـد تـذكر المعلم بشرح أمر غـامض لم يستكمل شرحه ، أو تنبهـه إلى إعـادة الشرح بـأسلوب آخر يقرّبُـه إلى الأذهان ...

وقد تنبه أسئلة الطلاب ، أستاذهم إلى بعض نقط الضعف عنده ، فيقوي علمه ، وهذا معنى قول الخليل عن السؤال : « فإنه ينبهـك على علم مالم تعلم » .

وبعد فهذه أهم الأسـاليب والمبـادئ التربو يـة عنـد ابن عبـد البر وهي أشبه بمرآة أو شاشة تعكس لنا مشاهد الهمة والنشـاط الجماعي في المساجد ومجامع العلم ، أو مرآة معنوية تعكس لنا الآثار النفسيـة للعلم الإلهي ـ النبوي ، الذي صبغ النفوس بمبادئـه السـاميـة ، وبعث فيهـا الإخلاص والصبر والتعاون والمحبة ، وطبعهـا بطـابع الـدقـة والأمـانـة العلميـة ، وأحيـا فيهـا حب العلم والسعي لنشره ، وخلّقها بـأخـلاق التـواضـع العلمي والتفـاني في سبيـل الـوصـول إلى الحـق وحسن أدائـه وإيصـالـه إلى القلوب ، وصبغ سلوك العلمـاء والمتعلمين بـالحلم وحسن التعامل والشكر والأناة وإجلال العلماء ، والرحمـة بـالمتعلمين والحرص على تربيتهم .

الفصل السّادس

أصول التربية عند ابن عبد البر

تهتم التربية المعاصرة بالأصول العلمية والفكرية للتربية ، كاهتمامها بالأصول النفسية والاجتماعية ، فأما الأصول الفكرية ، فيقابلها في التربية الإسلامية الأصول الاعتقادية[1] ومنها نظرة الإسلام إلى الإنسان والكون والحياة ، وأصل كل من هذه الكائنات ومصيره ، وسبب وجوده ووظيفته ونحو ذلك ...

وأما الأصول العلمية ؛ فهي تعني عند ابن عبد البر نظرته إلى العلم ومصادر المعرفة ، وأصل العلم ، ودرجاته ومراتبه وتعريفه وأصنافه ...

وهذا ما بحثه ابن عبد البر بإيجاز ، وقد عقد له باباً عنوانه : (باب معرفة أصول العلم وحقيقته ، وما الذي يقع عليه اسم العلم

---

(١) بَسطت هذه الأصول في كتاب (أصول التربية الإسلامية وأساليبها) للمؤلف .

والفقـه مطلقـاً)[1] ونظراً لما لهـذا البحث من أهميـة ، فقـد قسّمتـه ، وحاولت تبسيطه وتقريبه على الشكل التالي :

١ ـ **أصول العلم** : ويقـابلهـا في علوم المنـاهـج والمنطـق اليـوم مـا يسمى بـ (مصـادر المعرفـة ...) وأصول العلوم الشرعيـة عنـد ابن عبد البر هي نفس الأصول التي قـال بها جمهور علماء الإسلام ، وأئمـة الفقـه المجتهـدين وعلى رأسهم الأئمـة الأربعـة ، وقـد نقل ابن عبـد البر أقـوالاً لبعضهم وتبنـاهـا وعلـق عليهـا ، ومن أجمعهـا قـول الإمـام الشافعي : « ليس[2] لأحـد أن يقول في شيء : حلال ، ولا حرام ، إلا من جهة العلم . وجهة العلم : مانص في الكتاب ، أو في السنـة ، أو في الإجمـاع ، أو القيـاس على هـذه الأصـول مـا في معنـاه »[2] . وقـول محمـد بن الحسن : « العلم على أربعـة أوجـه : مـا كان في كتـاب الله الناطق ومـاأشبهـه ... »[3] ، قـال أبو عمر : « قول محمـد بن الحسن : وماأشبهه يعني ماأشبـه الكتـاب ، وكـذلـك قوله في السنـة وإجمـاع الصحابة ، يعني ماأشبه ذلك كله ، فهو القياس المختلف فيه »[4] وللعلم أصول أخرى عند الفلاسفة سيتعرض لها[5] .

---

(١) جامع بيان العلم (مرجع سابق) ٢٣/٢

(٢و٣و٤) المرجع السـابـق ٢٦/٢ ، وأبـو عمر هـو ابن عبـد البر يـذكر نفسـه بكنيتـه تواضعاً .

(٥) سيأتي ذلك في مطلع (تصنيف العلوم عند ابن عبد البر) .

٢ ـ **حقيقـة العلم :** يمكن أن تُبحث تحت هـذا العنوان ثـلاثـة أمور : معنى العلم ، وتعريفه ، وخصائصه .

أ ـ **معنى العلم :** كان (العلم والفقـه) إذا أطلـق في عهـد النبـوة أريـد بـه كتـاب الله وحـديث رسـول الله ﷺ . وقـد استـدل ابن عبد البر على ذلك بأحاديث منها حديثان لأبي هريرة ، حيث أجابه الرسول ﷺ ، وكان أبو هريرة قد سأله عن الشفاعـة : « لقـد ظننت ياأبا هريرة أنه لا يسألني عن هذا الحـديث أحـد أولى منـك لمـا رأيت من حرصك **على الحديث** »[1] ، وفي الحديث **الثاني** عندمـا سـأل مـاذا ردّ إليك ربّك في الشفاعة ؟ أجابه الرسول ﷺ : « لقـد ظننت أنـك أول من يسألني عن ذلك لما رأيت من **حرصك على العلم** »[2] . وعلّق ابن عبد البر على الحديثين بقوله : قال أبو عمر : في الخبر الأول : « لمـا رأيت من حرصـك **على الحـديث** » وفي هـذا : لمـا رأيت من حرصـك على العلم »[3] فسمي الحـديث علمـاً على الإطـلاق . ومثـل ذلـك قوله ﷺ : « نضّر الله أمرأ سمع مقالتي فوعـاهـا ثم بلغهـا غيره ، فرب حامل فقه غير فقيـه ، ورب حـامل فقـه إلى من هو أفقـه منـه »[4] . فسمى الحـديث فقهـاً ، مطلقـاً ، وعلمـاً ... وكـذلـك قـولـه ﷺ

(١ـ٢ـ٣ـ٤) جامع بيان العلم وفضله ، مرجع سابق ٢٧/٢ وقد أورد الحديثين بسندهما كعادته .

لعبـد الله بن عمرو بن العـاص ، إذ أذن أن يكتب حـديثـه : « قيـد العلم ، فقال : يا رسول الله وماتقييده ؟ قال : الكتاب » فـأطلق على حـديثـه اسم العلم لمن تـدبره وفهمـه ، انتهى كـلام ابن عبـد البر عن إطلاق العلم على الحديث ثم ساق حديثاً لبيان إطلاق العلم على القرآن ... عن أبيّ بن كعب قـال : قـال رسول الله ﷺ : « أبـا المنـذر ، أي آية معك في كتاب الله أعظم ؟ (مرتين) قال : قلت : الله لاإلـه إلا هو الحي القيوم . قال : فضرب في صـدري وقـال : لهينـك بـالعلم أبـا المنذر »[1] ثم ساق آثاراً بأسانيدها[2] كلها تـدل على أن (العلم مـا جـاء عن أصحاب محمد) وأن الذين أوتوا العلم هم أصحاب محمد ﷺ .

ويجمع كل هذه المعاني حديث عبـد الله بن عمرو بن العـاص أن رسول الله ﷺ قال : « العلم ثلاثة ، فما سوى ذلـك فهو فضلٌ ، آيـةٌ محكمة ، وسنة قائمة ، وفريضة عادلة »[3] .

ولكن عـامـة النـاس في عهـد النبوة كانوا يسمـون كل مـا يحصّلـه الإنسان من المعرفـة علمـاً ، كما روى ابن عبـد البر فيا أجـاز لـه أبو ذر عبد الله بن أحمد الهروي بسنـده ... عن[4] أبي هريرة « أن النبي ﷺ

---

(١) المرجع السابق ٢٧/٢

(٢) المرجع السابق ٢٨/٢ ـ ٢٩

(٣و٤) جامع بيان العلم وفضله ، مرجع سابق ٢٣/٢

دخل المسجد فرأى جمعاً من الناس على رجل فقال : وما هذا ؟ قالوا : يارسول الله رجل علاّمة . قال : وماالعلاّمة ؟ قالوا : أعلم الناس بأنساب العرب ، وأعلم الناس بعربية ، وأعلم الناس بشعر ، وأعلم الناس بما اختلف فيه العرب . فقال رسول الله ﷺ : هذا علم لا ينفع وجهل لا يضر »[1] .

ب ـ تعريفه :

لذلك عرف ابن عبد البر العلم تعريفاً يمكن أن يشمل كل ماتقدم وغيره فقال في (باب العبارة عن حدود علم الديانات وسائر العلوم)[2] « حدّ العلم عند العلماء المتكلمين في هذا المعنى : هو ما استيقنته وتبيّنته . وكل من استيقن شيئاً وتبينه ، فقد عَلِمه . وعلى هذا من لم يستيقن الشيء ، وقال به تقليداً ، فلم يعلمه » .

ويمكن ، بتحليل هذا التعريف ، أن يستنبط منه الباحث الخصائص والصفات التي إذا تميزت بها المعرفة أصبحت علماً ، وهي :

جـ ـ صفات العلم وخصائصه : يميز التعريف السابق العلم بثلاث خواص :

---

(١) المرجع السابق ٢٣/٢

(٢) المرجع السابق ٣٦/٢ . وقد عَرّف العلم عند المنطقيين المحدَثين وعلماء (المناهج) بأنه « معرفة منظمة مترابطة الأحكام ، متينة الارتباط ذات وحدة وكلية وانسجام » وبتعريف المنطقتين : « مجموعة من الحقائق اليقينية الكلية المنهجية الموضوعية » جمال الحاسب : مرجع سابق ١٠

الأولى : اليقين وهو التأكد من أن المعرفة صحيحة واليقين من فهم معناها ودلالتها على الحكم أو المطلوب ، ولذلك قال ابن عبد البر في آخر التعريف السابق : « وعلى هذا : من لم يستيقن الشيء وقال به تقليداً فهو لم يعرفه » واليقين يقابله الظن لذلك اعتبر علماء السلف أن الرأي ظني وأن العلم يقيني[1] كما نقل عنهم ابن عبد البر .

الخاصة الثانية : البيان والوضوح ، وكل من لم يتبين المعرفة ولم تتضح أبعادها في ذهنه لم يكن عالماً بها .

وهناك خاصة غير مادلّ عليه التعريف نقلها ابن عبد البر عن الإمام أحمد وغيره وهي :

الخاصة الثالثة : الثبات والموضوعية قد ذكرها ابن عبد البر في معرض المقارنة بين الرأي الشخصيّ المعرض للتغير والتقلب ، وبين العلم (الموضوعي) الثابت عن رسول الله أو في كتاب الله ، ونقل في ذلك قول أحمد بن حنبل : « إن قلت فإنما هو رأي . وإنما العلم ماجاء من فوق ، ولعلنا أن نقول القول ثم نرى بعده غيره »[2] وقول محمد بن مسلمة : « إنما على الحاكم الاجتهاد فيما يجوز فيه الرأي . وليس

(١) جامع بيان العلم (مرجع سابق) ٣١/٢ ـ ٣٥

(٢) المرجع السابق ٣١/٢

أحد في رأيٍ ، على حقيقة أنه الحق . وإنما حقيقته الاجتهاد »[1] فالاجتهاد والرأي ينتج حكماً يُقضى به بين متخاصمين ، أو فتوى تنطبق على واقعة قابلة للتغيّر أما العلم فحقائق ثابتة غير قابلة للتغير .

وقد سبق علماؤنا علماء النهضة الأوربية بقرون إلى هذه الصفات للمعرفة العلمية ، مثلَ (ديكارت) الفيلسوف الرياضيّ الفرنسي الذي عبر عن خاصة (البيان والوضوح) بـ (البداهة) وعرفها بقوله : « ألاّ يقبل الإنسان شيئاً ويعتبره صواباً ، قبل أن يظهر له ظهوراً واضحاً جلياً أنه كذلك »[2] (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ م) . ومثل (باسكال) الذي عبر عن صفة الثبات بقوله: « يعتبر تعاقب الأجيال على ممر العصور شخصاً واحداً يكتسب المعرفة دوماً ، ويزداد علماً »[3] .

٣ ـ تصنيف العلوم وتقسيمها عند ابن عبد البر :

تمهيد في بيان أصول المعرفة : يعتمد تصنيف العلوم عند الفلاسفة والمفكرين إما على اتجاهاتهم الفكرية ، إما على الأساس

---

(١) المرجع السابق ٣٢/٢

(٢) جمال الحاسب : دروس الفلسفة : ط . دمشق ١٣٦٠ هـ/١٩٤١ م نقلاً عن
Descarted: Discours de la mséthode: Meditatious prineipes de la philosophie elc. Curillier, Manuelle de philosophie

(٣) جمال الحاسب (مرجع سابق) ١٢ نقلاً عن T.I.P. 20

الذي يعتمده المصنف ، وإما على الاتجاه السائد في عصره ، والأساس الذي اعتمده ابن عبد البر هو الأصل الذي تنبع منه المعرفة ولذلك يقول ، معبّراً بلفظ (العلوم) عن المعرفة والإدراك :

« والعلوم تنقسم قسمين : ضروري ومكتسب[1] :

أ ـ فحدّ **الضروري** ما لا يمكن العالم أن يشكك فيه نفسه ، ولا يدخل على نفسه شبهة ، ويقع له العلم بذلك قبل الفكرة والنظر ، ويدرك ذلك من جهة الحس والعقل ، كالعلم باستحالة كون الشيء ، متحركاً ساكناً ، أو قائماً قاعداً أو مريضاً صحيحاً في حال واحدة . ومن الضروري أيضاً : وجه آخر يحصل بسبب من جهة الحواس الخمس ، كذوق الشيء . يعلم به المرارة والحلاوة ضرورة ، إذا سلمت الجارحة من آفة ، وكرؤية الشيء يعلم بها الألوان والأجسام ، وكذلك السمع يدرك به الأصوات[2] .

ب ـ وأما العلم **المكتسب** فهو ما كان طريقه الاستدلال والنظر ، ومنه الخفيّ والجليّ ، فما قرب من العلوم الضرورية كان أجلى ، وما بعد منها كان أخفى ، وهكذا يقرّر أن الحصول على المعرفة : إما أن يكون بالضرورة العقلية ، كالعلم بالبديهيات ، وإدراك استحالة التناقض . وإما أن يكون بالضرورة الحسية ، كمعرفة الألوان

(١و٢) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ٣٧/٢

والطعوم وغيرها من المحسّات بالجوارح السليمة . وإما أن يكون بالكسب والاستدلال ، ويقسم المعرفة النابعة من الكسب والاستدلال إلى خفيّ وجَليّ[1] » .

تصنيف المعلومات الناتجة عن أصول المعرفة :

بعد ذلك يقسم ابن عبد البر المعلومات بنفس التقسيم والاعتبار فيقول : « والمعلومات على ضربين : شاهد ، وغائب . فالشاهد ما علم ضرورةً ، والغائب ما علم بدلالة من الشاهد »[2] .

وهذا التقسيم نابع من تصنيف أصول المعرفة ولازم له : فالمعلومات التي حصلت عن طريق الضرورة العقلية ، كالحدس والبداهة يسميها (شاهداً) وكذلك المعلومات التي لزمت عن الضرورة الحسية كإدراك الألوان والأشكال ...

أما المعلومات التي لزمت عن الاستدلال فيسميها (غائباً) لأنك إنما تستخدم الاستدلال ، كما هو معروف في المنطق ، عندما تشك في بداهة العقل ، في الأمر الذي تبحث عنه . أو عندما تغيب عنه ، الضرورة أو البداهة العقلية ومن هنا جاءت تسميته (بالغائب) ، أو تغيب عنه الحواس ، وتبقى دلالتها في القضايا التي تعبر عن مدلولاتها

(١و٢) جامع بيان العلم ، مرجع سابق ٣٧/٢

الحاصلة في خبرات سابقة . فقولك عن عالم وأنت تسمعه وتشهد درسه : (هذا الرجل عالم) هو الضرب الشاهد من ضروب المعرفة والعلم ، أما نقلك ذلك من خبرة غيرك مما شاهده وغاب عنك فهو من (الضرب الغائب) . لذلك يقول ابن عبد البر : « والغائب ما علم بدلالة من الشاهد » وانطباق قوله هذا على المثال الآنف الذكر أنك تشهد صدق من نقل لك خبر ذلك العالم بحواسك وتقرأ عنه وتسمع العديد من الأخبار التي لا يعقل أو يستحيل عادةً تواطؤها على الخطأ ، كما تستدل بما شهده عقلك وحواسك ، على صدق رسالة نبينا محمد ﷺ ؛ وهكذا يمكن أن نلخص أصول العلم والمعرفة إلى أقسام :

أولاً : حصول العلم بالضرورة والبداهة العقلية ، وقبل النظر والاستدلال كإدراك استحالة اجتماع النقيضين ، أي عن طريق الحدس العقلي كما يسميه علماء المنطق اليوم .

ثانياً : حصول العلم بالضرورة الحسية ، عن طريق الحواس وهو أيضاً لا يحتاج إلى (الفكرة والنظر) لأنه يأتي عن طريق الحدس الحسّي كما هو معروف في المنطق .

ثالثاً : حصول العلم المكتسب وهو الحاصل عن طريق الفكر والنظر والاستدلال ، وهو إنما يحصل بدلالة الضرورة الحسّية التي حصلت سابقاً ، أو بدلالة الضرورة العقلية ، والعلم المكتسب لا يقل

صدقاً ويقيناً عن العلم الضروري لأنه يجمع دلالة الضرورة العقلية الحاضرة ، كمعاينة الآثار والوثائق والأخبار وكالإحساس بإعجاز القرآن وصدق النبوّة ، إلى الدلالات المنقولة إلينا بالخبر الصادق عن طريق التواتر ...

٤ ـ أنواع العلوم ومراتبها

تنقسم العلوم عند الإمام يوسف بن عبد البر بناء على اعتبارين هما :

العلوم عند أهل الديانات .

العلوم عند الفلاسفة .

وهذا نص كلامه[1] ، رتّبته في فقرات حسب طبيعة البحث ، وهي :

أ ـ « العلوم عند جميع أهل الديانات : ثلاثة : علم أعلى ، وعلم أسفل ، وعلم أوسط .

أولاً ـ فالعلم الأعلى عندهم علم الدين الذي لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أنزله الله في كتبه ، وعلى أَلْسِنَةِ أنبيائه صلوات الله عليهم نصاً .

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبد البر ٣٧/٢ ـ ٣٨

ثانياً ـ والعلم الأوسط هو معرفة علوم الدنيا التي يكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظيره ، ويستدل عليه بجنسه ونوعه ؛ كعلم الطب ، والهندسة .

ثالثاً ـ والعلم الأسفل هو أحكام الصناعات وضروب الأعمال : مثل السباحة والفروسيّة ، والزي والتزويق والخط ، وما أشبه ذلك من الأعمال التي هي أكثر من أن يجمعها كتاب ، أو يأتي عليها وصف . وإنما تحصل بتدريب الجوارح فيها » .

ويستطيع الباحث أن يجد بعض الارتباط بين هذا التقسيم ، وبين أصول المعرفة عنده ، فالعلم الأعلى ناتج عن الضرورة العقلية التي ندرك بها وحدانية المعبود وصدق النبوّة (الحدس العقلي) ، والعلم الأوسط الذي يستدل عليه بجنسه ونوعه ، كما قال : « ويكون معرفة الشيء منه بمعرفة نظيره » يرتبط حسب تعريفه هذا **بالمعرفة المكتسبة** المبنية على النظر **والاستدلال** .

ب ـ تقسيم العلوم عند الفلاسفة : وهو نظير التقسيم السابق كما قال ابن عبد البر : « وهذا التقسيم في العلوم كذلك هو عند أهل الفلسفة »[1] أي على ثلاثة أنواع :

---

(١) المرجع السابق

أولاً ـ « إلا أن العلم الأعلى عندهم : هو علم القياس في العلوم العلوية التي ترتفع عن الطبيعة والفلك . مثل الكلام في حدوث العالم وزمانه ، والتشبيه ونفيه وأمور لا يدرك شيء منها بالمشاهدة ولا بالحواس ، وقد أغنت عن الكلام فيها كتب الله الناطقة بالحق المنزلة بالصدق ... » .

ثانياً ـ « والعلم الأوسط ينقسم عندهم على أربعة أقسام كانت عندهم رؤوس العلوم وهي : علم الحساب ، علم التنجيم ، والطب ، وعلم الموسيقى » .

ثالثاً ـ « والأسفل عندهم على ماذكرنا عن أهل الأديان » يعني أحكام الصناعات وضروب الأعمال ...

جـ ـ مراتب العلوم وأهميتها في ميزان الإمام يوسف بن عبد البر :

قوّم الإمام ابن عبد البر العلوم السائدة في زمانه بحسب منفعتها ويقينها ، ونظرة الإسلام إليها ، وذكر بعض الموضوعات والأمور التي تبحثها هذه العلوم :

أولاً ـ فأما العلم الأعلى عند الفلاسفة « وهو علم القياس في العلوم العلويّة مثل حدوث العالم وزمانه ... »[1] فقد قال عنها أنها « أمور

---

(١) جامع بيان العلم ٣٧/٢ ـ ٣٨

لا يدرك شيء منها بالمشاهدة ولا بالحواس ... » وبدراسة ماقاله ، يستطيع الباحث أن يلمح نقده لهذه العلوم آخذاً عليها المآخذ التالية :

١ ـ ليست حقائق هذه العلوم من المعلومات الثابتة بالضرورة العقلية .

٢ ـ ولا هي ثابتة بالمشاهدة أو بالحواس .

٣ ـ وهي مع ذلك ليست موافقة لما ثبت بالوحي عند أهل الأديان ... فأصولها لا تصح بحال ... « ويغني عن الكلام فيها كتب الله الناطقة بالحق ، المنزّلة بالصدق » كما قال .....

وهكذا ، لا يقبل ابن عبد البر أن تبحث أو تناقش الإلهيات والعلوم العلوية بطريق القياس الفلسفي .

ثانياً ـ وأما العلوم المتفرعة عن العلم الأوسط ، فله فيها كلام يدل على سعة اطّلاع ، وبعد نظر ، ودقة واعتدال ... إذ ابتدأ فأجمل العلم الأوسط الذي « ينقسم عندهم على أربعة أقسام ... وهي علم الحساب والتنجيم والطب والموسيقى »[2] ثم فَنَّدَ كل قسم من هذه الأقسام ...

---

(١) المرجع السابق

(١) ـ « فأما علم الموسيقى واللهو فمُطَّرَح ومنبوذ عند جميع أهل الأديان ، على شرائط العلم والإيمان » .

(٢) ـ « وأما علم الحساب فالصحيح عندهم منه معرفة العدد والضرب والقسمة والقسمية وإخراج الجذور ، ومعرفة جمل الأعداد ، ومعنى الخط والدائرة والنقطة ، وإخراج الأشكال بعضها من بعض ، وما شاكل ذلك . **والحساب علم لا يكاد يستغني عنه ذو علم من العلوم** » .

إن هذا الرأي الثاقب الذي يدلنا على سعة إدراك ونقاء فكر عند ابن عبد البر ، هو آخر ما توصلت إليه التربية المعاصرة ، ومناهج العلوم التجريبية ، حول أهمية علم الحساب والرياضيات بالنسبة للعلوم الأخرى واعتمادها عليها بشكل واسع .

(٣) ـ ثم تحدث عن علم (الفلك) وكان يدعى في زمانهم (التنجيم) ؛ وهو عنوان شامل يرادفه ما يسمّى اليوم (الجغرافية الطبيعية أو الفلكية) ـ كما يبدو من كلامه عنه ـ قال : « وأما التنجيم ، فثمرته وفائدته عند جميع أهل الأديان : جِرْيَةُ الفلك ، ومسير الدَّراري ، ومطالع البروج ، ومعرفة ساعة الليل والنهار ، وقوس الليل من قوس النهار ، في كل بلد وفي كل يوم ، وبُعد كل بلد من خط الاستواء ، ومن المجرّ الشمالي والأفق الشرقي والغربي ، ومولد

الهـلال وظهـوره ... ، وكسـوف الشمس والقمر ومقـدداره في كل بلد .. »[1] ثم أفاض منكراً ما خـالـط هـذا العلم من مبـالغـات وخزعبلات : كادّعاء علم الغيب ، وعمر الدنيا ، وما فعله المتخرصون بالتنجيم والقيافة والزجر وخطوط الكف ... وللقارئ أن يدرك مدى الموضوعية التي حكمت آراء ابن عبد البر في حديثه عن هذا العلم . إذ استنبط السمين من الغث وأدرك بنظرة العـالم ، ورهـافـة حس المؤمن مايؤخذ منه ، وما يُترك .

(٤) ومما تحدث به عن رابع أركان العلم الأوسط نقتطف ما يلي : « وأما الطب ، فلفهم طبـائع نبـات الأرض ، وشجرهـا ، وميـاهها ، ومعادنها ، وجواهرها وطعومها وروائحها ، ومعرفة العنـاصر والأركان وخواص الحيوان وطبـائـع الأبـدان والغرائـز ، والأعضـاء ، والآفـات العارضة ، وطبـائع الأزمـان والبلـدان ، ومنـافع الحركـة والسكون ، وضروب المداواة والرفق والسيـاسـة »[2] فـدلّ كلامـه على اختلاط علم الحياتيات (البيولوجيا)[3] بعلم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيـا)[4] مع علوم الفيزاء والكيمياء ، والحيوان والنبـات ، والأدويـة والمداواة ، وعلم المجتمـع والسيـاسـة ... كلهـا تحت عنـوان (الطب) أو (علم الأبـدان) ، ولئن كان تصنيفـه هـذا يُعـوزه بعض الـدقـة في الفروع

(١ و٢) جامع بيان العلم ٣٧/٢ ـ ٣٨

(٣ و٤) Physiologie - Biologie

والتفاصيل ، إذا قيس بتصنيف العلوم في زماننا ، فإنه بالنسبة لعصره يمتاز بالنظرة النقديّة ، المعْتمدة على معيار ثابت ، وباعتماده على أساس متين وفهم واضح لأصول المعرفة ومنابعها ، وبمحاولة ناجحة للتمييز بين العلم الموضوعي الصحيح وبين مااختلط بالعلم من خرافات وأباطيل كان الجهال يلصقونها بالعلوم الطبيعية والرياضية والفلكية .

كما امتاز تقويمه للعلوم في زمانه بنظرة عادلة موضوعية ، تَنِمّ عن سعة اطلاع وعمق وبعد نظر ...

وإنه ليس من العسير على القارئ المتدبّر ، والباحث ؛ أن يعقد مقارنات ويجري تطبيقات بين آداب طلب العلم والأساليب والمبادئ التربوية عند ابن عبد البر ، والتي سردناها في الفصول السابقة ، وبين ما يناظرها من مبادئ وأساليب طلع بها علماء هذا العصر ؛ لتحكم وتنظم العلوم المعاصرة . وهي وليدة أصول العلم التي صنفها ابن عبد البر فيما صنفناه آنفاً ... ليجد الشبه في كثير من المواطن ، وليكشف السبق الذي حققه علماؤنا في تأصيل العلوم ، وترتيب الآداب والأساليب واستنباطها . وهي أمور لفتنا نظر القارئ لها في كثير من المواضع ، وقد ييسر لنا الله التوسع فيها في مؤلفات أخرى نخصصها للتربية المقارنة .

الخاتمة

وبعد ... فإنني أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت في هذه العجالة إلى إلقاء الضوء على رائد من رواد التربية الإسلامية ... وفقيه من فقهاء تاريخنا المشرق ، ومحدث حافظ . لأعرّف به الجيل العربي المسلم ، الذي بدأ بالنضج والبحث عن ذاته وهويته في عصر تضاربت فيه الآراء ، وكثرت الثقافات ، وتنوعت المذاهب والمشارب ... لتشكل تيّاراً هادراً يأخذ في طريقه كل شابة أو شاب بدأ يدرج في ميدان الثقافة ، دون أن يتمسك بمبدأ بعينه ، أو يتخذ سمتاً متميزاً ...

علّ هذه السلسلة ، وهذا الكتاب هو ثانية حلقاتها ، تكون مؤشراً هادياً ، يدل السالكين ؛ ويصعد بالدارجين ...

والله من وراء القصد .

١٤٠٦/٥/٧ هـ

ثبت المراجع والمصادر

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ الجامع الصحيح للإمام مسلم .

٣ ـ الأدب المفرد للإمام البخاري .

٤ ـ الترغيب والترهيب . للحافظ عبد العظيم المنذري . طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ ، عيسى البابي الحلبي .

٥ ـ صحيح الترغيب والترهيب : لناصر الدين الألباني ، طبع المكتب الإسلامي ببيروت .

٦ ـ رياض الصالحين . للإمام النووي . طبع الشمرلي بمصر .

٧ ـ صحيح الجامع الصغير . لناصر الدين الألباني . طبع المكتب الإسلامي ببيروت . ط (١) ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .

٨ ـ تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي . طبع دار إحياء التراث ببيروت .

٩ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني . طبع حيدر آباد ، ١٣٢٥ هـ

١٠ ـ شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي .

١١ ـ تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ـ ترجمة د . محمود فهمي حجازي طبع حامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

١٢ ـ جامع بيان العلم وفضله : لابن عبد البر القرطبي . طبع إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
١٣ ـ تجريد التمهيد لابن عبدا!! رالقرطبي . طبع القدسي القاهرة ١٣٥٠ هـ
١٤ ـ الكافي في فقه أهل المدينة . مكتبة الرياض الحديثة ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م
١٥ ـ ابن عبد البر النمري ورسالته في الأخلاق الإسلامية : تأليف محمد بن محمد أحيد الماديك الموريتاني (محقق الكتاب السابق) . شركة مطابع الجزيرة في الرياض ١٣٩٧ هـ .
١٦ ـ خصائص التصور الإسلامي : لسيد قطب . دار الشروق .
١٧ ـ المناهج المعاصرة : د الدمرداش عبد المجيد سرحان طبع دار الفلاح بالكويت .
١٨ ـ أصول التربية الإسلامية وأساليبها : عبد الرحمن النحلاوي . طبع دار الفكر بدمشق .
١٩ ـ التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة : عبد الرحمن النحلاوي ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ـ المكتب الإسلامي ببيروت .
٢٠ ـ تمهيد في علم الاجتماع . د. عبد الكريم اليافي ـ مطبعة جامعة دمشق ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .
٢١ ـ دروس الفلسفة : جمال المحاسب مطبعة الترقي بدمشق ـ ١٩٤١ م
٢٢ ـ القاموس المحيط للفيروز آبادي .
٢٣ ـ الفلم القرآني ـ للأستاذ عبد الرحمن الباني . طبع المكتب الاسلامي بيروت

مسرد البحوث والمواضيع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

هذا الكتاب هو الحلقة الثانية في سلسلة أعلام التربيـة التي قَصَدْنا من ورائها أن « نجلّي الأفكار التربوية المغمورة لعـدد من أعلام الفكر الإسلامي » والتي تفوق الكثير « من مبادئ التربيـة المعاصرة في الشمول والمرونة والتطبيق » .

وحلقتنـا الثـانيـة هـذه عن الآراء التربـويـة لـدى (ابن عبد البر القرطبي) تتناول بأسبقيـة مشرّفـة كثيراً من نظريـات عصرنـا الحـديث كإلزامية التعليم ، ومجّـانيتـه ، وموضـوعيتـه ، وأمانته ، وتطبيقاته ، والتدرّج فيه ، والتبسيـط والفهم والحفـظ والمـذاكرة والتكرار والحوار وفن السؤال ، وغير ذلـك ممـا يتصل بطرائق التعليم وأساليب التعلم .

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر
دمشق - سورية
ص ب ٩٦٢ - تلكس SY ١١١٧١٥ FKR